روايات عالمية للجيب 61

محامي الشوارع



تأليف : جون جريشام

ترجمة وإعداد : د. أحمد خالد توفيق

المؤلـف



التقينا (جون جريشام Grisham) مرتين من قبل هنا .. مرة مع تحفته (صانع الأمطار) ومرة مع (العميل) ، وتعد القصتان من أكثر ما نشر فى هذه السلسلة فوزًا بإعجاب القارئ واستحسانه .. نذكر القارئ أن (جريشام) أديب أمريكى مال للتخصص فى عالم المحاماة والقضايا ، وهو بهذا يحذو حذو أديب شهير آخر هو (إيرل ستانلى جاردنر) صاحب (بيرى ماسون) ..

ولد جريشام فى أركنساس عام ١٩٥٥ لأب مزارع قطن ، وقد استقرت أسرته جوار المسيسيبى عام ١٩٦٧ .. فى هذا الوقت تقريبًا بدأ الشاب يقرأ بنهم ، خاصة أعمال أديب أمريكا العظيم (شتاينبيك Steinbeck) ، وإن لم يطمح للأدب قط ، فقد كان يعتقد أنه خلق ليكون لاعب

بيزبول عظيمًا .. ذلك الطموح الذى تخلى عنه فى مباراة عنيفة جعلته يدرك قدراته بالضبط . درس المحاسبة وتخرج عام ١٩٧٧ . التحق بمدرسة القانون عام ١٩٨١ حيث عمل بالمحاماة لفترة .

اضطر ذات مرة لسماع طفلة صغيرة تحكى فى المحكمة قصة اعتداء تعرضت له .. هنا خطر له أن يتخيل الوضع القانونى لو أن الفتاة كانت زنجية ، ولو أن الاعتداء تم على يد مجموعة من البلطجية البيض المتعصبين ذوى الأعناق الحمر Red necks .. هنا يلعب التعصب العرقى دورًا لا بأس به ؛ لأن فرصة نجاة المجرم الأبيض عالية إذا كان المحلفون بيضًا ، وهذا ما يدفع أبا الطفلة لتنفيذ العدالة بيده .. هكذا ولدت قصة (وقت للقتل) عام ١٩٨٧ ، والتى لم تلق اهتمامًا يُذكر ، فلم يبع منها إلا ألف نسخة ..

لكنه بعدما قدمها للناشر الوحيد الذى قبلها ، بدأ قصة ثانية اسمها (الشركة) . وقد قفزت هذه القصة المثيرة إلى الصف الأول فى أعلى المبيعات ، وعام ١٩٩١ اشترتها منه إحدى شركات الإنتاج السينمائى بستمائة ألف دولار .

(الشركة) تحكى عن محام شاب يتعلم الدرس بالطريقة الصعبة : لا أحد يقدم شيئًا مجانًا ، وكل هذه المزايا التى تمنحها إياه شركة المحاماة الكبرى تضعه فى ورطة مخيفة بين الـ FBI والمافيا الغاضبة .. برغم أن الفيلم الذى قدمه (توم كروز) نجح جدًّا فإن الرواية سبقته فى هذا النجاح ، وبالتالى راجت رواية (وقت للقتل) ورآها النقاد للمرة الأولى ..

بدأ جريشام يقدم عملاً واحدًا تقريبًا كل عام ، وتبدت فى أعماله ثقافته القانونية مع فهمه للجنوب الأمريكى وعالم المسيسيبى الذى قدم لنا من قبل أديبًا عظيمًا هو (مارك توين) ..

قدم بعد هذا (العميل) و(الغرفة) و(المحلف الهارب) و(صانع الأمطار) و(الشريك) و(محامى الشوارع) و(ملف البجعة) و(الشهادة) و(مقاعد الشمس) .. القصة الأخيرة تنتمى لعالم البيزبول الذى لم ينسه قط . ويذكر القارئ أننا قدمنا فى هذه السلسلة قصتى (صانع الأمطار) و(العميل) .

هناك تيمة محببة لـ (جريشام) هى البطل الفرد الوحيد الضعيف الذى يواجه كيانًا ضخمًا مرعبًا .. المافيا أو شركات المحاماة العملاقة أو شركات التأمين أو الاستخبارات المركزية .. حجم رواياته ضخم مما يروق للقارئ الأمريكى الذى لا ينظر بجدية لرواية صغيرة الحجم ..

نال جريشام لقب (أفضل الكتاب مبيعًا فى التسعينيات) ، وكل عنوان جديد له هو فيلم جاهز للتصوير ، ويعتبر حاليًا أكثر الكتاب شعبية لدى قارئ الإنجليزية بعد (ستيفن كنج) ..

يعيش جريشام فى أكثر من بيت جوار المسيسيبى وفى أكسفورد وفرجينيا ، ولديه ابنان .. امتاز أدبه بأنه يتحاشى الجنس والعنف والبذاءات ، وهو لم يخف للحظة صدمته من كل هذه الأشياء التى يقحمها كتاب السيناريو على قصصه ..

د . أحمد خالد

واحـــد

دخل الرجل ذو الحذاء المطاطى طويل العنق المصعد خلفى ، لكنى لم أره فى البداية .. برغم هذا شممت رائحة التبغ والخمر الرخيصة والحياة فى الشارع بلا صابون . كنا وحيدين بينما المصعد يصعد لأعلى ، وإذ نظرت لأسفل رأيت الحذاءين .. أسودين كبيرين متسخين .. معطف مطر يتدلى حتى ركبتيه ، وتحته طبقات من ثياب متسخة جعلته يبدو أقرب للبدانة . لكنها ليست بدانة فرط التغذية ، ففى شتاء واشنطن يلبس الناس الذين لا بيت لهم كل ما يملكون .

كان أسود متقدمًا فى العمر ، وقد شاب نصف شعره ولحيته فهو لم يقصهما أو يغسلهما منذ أعوام . كان يتجاهلنى وهو ينظر أمامه عبر نظارة شمس سميكة حتى تساءلت عن سبب اهتمامى به .

لم يكن ينتمى هنا . ليست هذه بنايته ولا مصعده .. كل المحامين فى الطوابق الثمانية فى شركتى هذه يعملون

بالساعة ويتقاضون أجورًا مازلت أراها فادحة بعد سبعة أعوام . مجرد متسكع جاء من البرد .. هذا يحدث طيلة الوقت فى وسط واشنطن ..

فى الطابق السادس توقفنا ، وللمرة الأولى لاحظت أنه لم يطلب رقم أى طابق .. لقد كان يقتفى أثرى .. خرجت مسرعًا فما إن مشيت عبر البهو الرخامى الفاخر لشركة (دريك وسوينى) حتى اختلست نظرة للخلف لأراه ما زال فى المصعد لا ينظر لى .

حيَتنى مدام (ديفييه) موظفة الاستقبال بطريقتها الموحية بالازدراء ، فقلت لها :

- « راقبى المصعد .. »

- « لمه ؟ »

- « متسكع .. ربما وجب أن تطلبى الأمن وربما بعض المطهرات .. »

وابتعدت واضعًا معطفى على كتفى ، ونسيت الرجل ذا الحذاء المطاطى .. لدى مقابلات لا تنتهى طيلة العصر ،

وكنت على وشك أن أقول شيئًا لـ (بولى) سكرتيرتى عندما سمعت الطلقة الأولى .

كانت مدام (ديفييه) تقف خلف مكتبها متصلبة تحدق فى ماسورة طويلة لمسدس يحمله صديقنا متسكع الشارع . كنت أول من دنا منها لذا صوب المسدس بلياقة نحوى فتصلبت بدورى .

كنت قد رأيت ما يكفى من أفلام لأعرف ما يجب عمله ؛ لذا قلت وأنا أرفع يدى :

- « لا تطلق النار .. »

غمغم فى هدوء :

- « اخرس .. »

فجأة صرخ أحدهم من خلفى :

- « إن معه مسدسًا ! »

ثم تلاشت الأصوات فى الخلفية .. وإذ جرى رفاقى للأبواب الخلفية كاد بعضهم يثب من النوافذ . عن

يسارى يوجد باب خشبى عملاق يقود لقاعة اجتماعات فيها الآن ثمانية محامين من قسم التقاضى .. ثمانية محامين لا يخافون شيئًا .. كان أكثرهم صلابة طوربيدًا عدوانيًا اسمه (رافتر) ، ما إن فتح الباب صائحًا :

ـ « ماذا بحق الجحيم ؟ »

حتى اتجهت ماسورة المسدس نحوه .. صاح (رافتر) :

ـ « دع هذا المسدس .. »

خلال جزء من الثانية انطلقت طلقة أخرى تخترق السقف فوق رأس (رافتر) فجعلته يدرك أنه فان .. أشار لى الرجل فدخلت قاعة الاجتماعات ، وكانت مدام (ديفييه) ترتجف وقد مزقها الرعب .

أغلق المتسكع الباب خلفى ورفع المسدس فى الهواء كى يتمكن كل المحامين من إبداء إعجابهم به .. كانت رائحة البارود أقوى من رائحة حامل المسدس ..

قال الرجل وهو يستعمل مسدسه كحجة إقناع قوية :

ـ « قفوا أمام الجدار .. »

ثم وضعه جوار رأسى ، وقال :

ـ « أغلق الأبواب .. »

وكذا فعلت ..

لم تبدر كلمة عن ثمانية المحامين ، ولم تبدر كلمة منى وأنا أنفذ الأمر ثم التفت له .. لسبب ما تذكرت جرائم إطلاق الرصاص فى مكتب البريد ، عندما يعود موظف فى ساعة الغداء ليطلق الرصاص على خمسة عشر من زملائه .. تذكرت المذابح فى مطاعم الوجبات السريعة .. كل من ماتوا فى هذه الحوادث كانوا أطفالاً أو مواطنين صالحين .. بينما نحن حفنة من المحامين !

بإشارات من مسدسه أوقف المحامين جوار الحائط ثم التفت لى .. ماذا يريد ؟ لم أر عينيه بسبب نظارات الشمس لكنه كان يرى عينى .. نزع معطفه وبعناية وضعه على المنضدة .. ثم نزع الطبقة الثانية .. سترة صوفية خضراء سميكة .. سميكة لسبب واضح هو أن

هناك حول خصره حزمة من عصى حمر .. وأدركت عينى غير المدربة أن هذا ديناميت ..

هناك أسلاك تجرى كالسباجيتى الملونة من وإلى أصابع الديناميت ، بينما قام شريط (شكرتون) فضى بتثبيت كل شىء ..

- « أرجوكم الهدوء .. »

قالها بلهجة الأستاذ الصبور .. وقد جعلنى هدوءه أفقد أعصابى .. مد يده فى جيبه فأخرج مطواة وحزمة حبال .. ثم نظر للوجوه المذعورة ، وقال :

- « لا أريد أن أؤذى أحدًا .. »

كان من الجميل أن تسمع هذا لكن من العسير أن تأخذه بجدية .. هنا عاد المسدس لى .

- « أنت .. اربطهم .. »

كان (رافتر) قد اكتفى .. تقدم نحو الرجل وقال :

- « اسمع يا صاحبى . ماذا تريد بالضبط ؟ »

انطلقت الرصاصة الثالثة فوق رأسه .. بدت كطلقة مدفع وفى مكان ما من البهو صرخت إحداهن ..

قال المتسكع :

- « لا تنادنى بـ (صاحبى) .. »

وعلى الفور تم استبعاد لفظة (صاحبى) من القاموس .. وسألته شاعرًا بأننى صرت تقريبًا زعيم الرهائن :

- « بم أناديك ؟ »

- « نادنى بـ (مستر) .. »

وناسب الجميع هذا اللقب .. هنا دق جرس الهاتف فرفع السماعة بيده اليسرى بينما اليمنى تصوب المسدس نحو (رافتر) . لو أن لنا حق الانتخاب لاخترنا (رافتر) ليكون كبش الفداء الأول ..

قال (مستر)(*) :

(*) هذه سخرية طبعًا .. لقد افترض أن اسم الرجل هو (مستر) لأنه لا يعرف اسمًا آخر .

- « نعم .. »

ثم وضع السماعة وناولنى الحبل وأمرنى بأن أحكم قيدهم . بحيث ترتبط معاصمهم .. فعلت ذلك وأنا أحاول جهدى ألا أنظر لوجوه زملائى الذين أقودهم إلى نهايتهم .. حاولت أن أبقى القيد مرخيًا قدر الإمكان ..

كان (مالامود) يتنفس بصعوبة ، ويعرق بغزارة ، فقد كان أكبرنا سنًا وقد مر عامان منذ نوبته القلبية الأولى .. نظرت لـ (نوتسو) صديقى الوحيد الحقيقى فى هذه المجموعة .. كان من نفس سنى 32 عامًا وزوجتانا من (بروفى دنس) .. زواجه ناجح بينما زواجى يوشك على الانتهاء .. تلاقت عينانا وفكر كل منا فى أطفاله .. كنت سعيد الحظ لأننى لم أنجب ..

دوت السرينة الأولى فطلب منى (مستر) أن أسدل الستائر على النوافذ .. نظرت لساحة الانتظار فرأيت سيارة شرطة خالية فتحت أبوابها ، فلابد أن شرطييها فى البناية فعلاً ..

★ ★ ★

حسب آخر إحصاء ، لابد أن شركة (دريك وسوينى) لديها ٨٠٠ محام حول العالم ، ونصفهم فى واشنطن فى البناية التى يهددها (مستر) ..

طلب منى أن أتصل بالريس وأخبره أن الرجل مسلح ويحمل دستة من أصابع الديناميت . اتصلت بـ (رودلف) مدير قسمى ونقلت له الرسالة وأضفت :

- « أرجو أن تنفذ ما يطلبه .. »

- « وما الذى يطلبه ؟ »

- « لا أعرف .. »

هنا لوح (مستر) بالمسدس لتنتهى المحادثة . ثم راح يعبث بسلك أحمر من الأسلاك المحيطة بخصره :

- « هذا السلك الأحمر .. يكفى أن أجذبه وينتهى كل شىء . »

سألته :

- « لِمَ تفعل ذلك ؟ »

- « لا أريد .. لكن لم لا أفعله ؟ »

دهشت من طريقة أدائه الرتيبة المنهجية .. كل مقطع يحظى بنفس المعاملة .. إنه حاليًا متسكع لكن لابد أنه رأى أيامًا أفضل .

كانت الواحدة والثلث فأنا محام أعيش بالساعة ومرت فترة صمت محطمة للأعصاب مدتها أربع عشرة دقيقة .. لم أصدق أننا سنموت . لا يبدو لى أن هناك دافعًا أو سببًا لقتلنا .. أعرف يقينًا أن أحدنا لم يلقه من قبل .. هذه بالضبط هى المذبحة التى ستستولى على اهتمام الإعلام فى الفترة القادمة ، ثم يبدأ البعض فى تأليف نكت المحامى الميت .. كان بوسعى أن أرى عناوين الصحف ، لكننى عجزت عن تصديق أن هذا سيحدث فعلاً .

فجأة سألنى (مستر) :

- « ماذا تناولت فى الغداء ؟ »

- « تناولت دجاجًا مشويًا .. »

- « وحدك ؟ »

- « كلا .. كان معى صديق .. »

- « وكم كلفتكما هذه الوجبة ؟ »

- « ثلاثون دولارًا .. »

لم يحب هذا .. هز رأسه ، وقال :

- « ثلاثون دولارًا ؟ لفردين ؟ »

ثم نظر إلى المحامين الثمانية ، ودعوت الله أن يكذبوا لو أنه سألهم .. هناك (كروش) ممتازة فى هذه المجموعة ، وثلاثون دولارًا لا تكفيهم فاتحًا للشهية ..

- « هل تعرف ما أكلته أنا ؟ »

- « لا .. »

- « أكلت حساء ومقرمشات فى أحد الملاجئ .. حساء مجانى سرنى أن ظفرت به .. يمكنك أن تطعم مائة من أمثالى بثلاثين دولارًا .. هل تعرف هذا ؟ »

هززت رأسى فى جدية كأنى تبينت فجأة حجم خطيئتى ..

لوح بمسدسه ، وقال :

ـ « اجمع كل المحافظ والساعات والمجوهرات .. »

ـ « هل لى أن أسأل لماذا ؟ »

ـ « لا .. »

هكذا وضعت حافظتى وساعتى على المنضدة ثم رحت أفتش فى جيوب رفاقى .. طلب منى أن أتصل برئيسى ثانية فرد (رودلف) فورًا .. يمكننى أن أتخيل قائد (السوات) يقف فى مكتبه الآن ..

كان الرجل يريد أن أحمل حقيبة سوداء كبيرة لأضعها خارج القاعة ثم أعود وأغلق الباب خلفى ، وهذا ما طلبته من (رودلف) .. ونفذت ما قاله ثم عدت له .. سألنى من جديد :

ـ « كم من المال كسبت العام الماضى ؟ »

قلت فى ارتباك :

ـ « انتظر .. دعنى أتذكر .. »

ـ « لا تكذب ! »

ـ « مائة وعشرون ألفًا ... »

بدا أن هذا لم يرق له بدوره ، فعاد يسأل :

ـ « وكم أنفقت منه على أعمال الخير؟ »

ـ « آه .. دعنى أتذكر .. زوجتى تتولى شئون الإنفاق والفواتير .. »

ـ « ومن يدفع ضريبة الدخل الخاصة بكم ؟ »

ـ « هذا تتولاه إدارة الضرائب الخاصة بنا . »

ـ « هل هى فى هذه البناية ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « إذن أوصلنى بهم .. أريد سجل الضرائب لكل شخص هنا .. »

نظرت لوجوههم ، ورأيت فى وجه اثنين أنهما يوشكان على قول : هلمّ أطلق الرصاص علينا فهذا أفضل ..

لابد أننى ترددت لأن (مستر) صوب المسدس على رأسى ، وصاح :

ـ « افعل ذلك الآن ! »

اتصلت بـ (رودلف) الذى بدا مترددًا ، حتى صرخت فيه :

ـ « افعل ذلك الآن ..!.. أرسلها لى بالفاكس .. ضرائب آخر عام فحسب .. »

ورحنا نراقب آلة الفاكس فى الركن بانتظار الأرقام ، خائفين أن يقتلنا (مستر) لو تأخر وصول نموذج ١٠٤٠ الخاص بالضرائب ..

★ ★ ★

اثنان

بما أن (مستر) قد قام بتعيينى ككاتب حسابات للمجموعة ، جلست حيث أشار لى بالمسدس وأمسكت بالفاكسات .. كان رفاقى قد وقفوا مدة ساعتين وظهرهم للجدار الآن وقد بدا عليهم الإرهاق والتعاسة ..

سألنى (مستر) :

ـ « أنت أولاً .. ما اسمك ؟ »

أجبت فى أدب :

ـ « مايكل بروك .. »

ـ « كم من المال كسبت العام الماضى ؟ »

ـ « قلت لك .. مائة وعشرون ألفًا قبل الضرائب .. »

ـ « وكم أنفقت منه على أعمال الخير؟ »

كنت واثقًا من قدرتى على الكذب .. لست محاسب ضرائب لكن بوسعى خداعه .. زوجتى (كلير) حصلت على ٣١ ألف دولار كطبيبة جراحة مقيمة ؛ لذا بدا دخلنا

الكلى عاليًا .. وبعد دفع الضرائب ومصاريف دراسة (كلير) وإيجار الشقة الجميلة فى (جورجتاون) 2400 دولار فى الشهر استثمرنا ٢١ ألف دولار فى حساب مشترك ..

كان (مستر) ينتظر فى صبر .. وكنت أتخيل رجال (السوات) يزحفون هنا وهناك ويتسلقون الأشجار ، ويفعلون كل الأمور التى نراها فى السينما .. ومهمتهم وضع رصاصة فى جمجمته وبرغم هذا لا يبدو أنه مهتم لأى شىء .. لقد تأهب للموت واستسلم لقدره .. وهذا لا ينطبق علينا ..

قلت له :

ـ « تبرعت بألف دولار لجامعة (ييل) وألفين لهيئة (الطريق المتحد) المحلية .. »

ـ « كم دفعت للفقراء ؟ »

ـ « (الطريق المتحد) تتخذ ما تراه مناسبًا لأعمال الخير .. ودفعت ٢٥ ألف دولار كضرائب .. بالطبع أكثر هذا المبلغ يذهب للخدمات الطبية والأطفال معدومى الأهلية »

ـ « وهل فعلت هذا عن طيب خاطر ؟ »

ـ « لم أشك .. »

طبعًا كنت أكذب ..

ـ « هل شعرت بالجوع من قبل ؟ »

كان يحب الإجابات البسيطة ولم يرزقنى الله برد بليغ ، لذا قلت :

ـ « لا .. »

ـ « هل نمت فى الجليد ؟ أنت تكسب الكثير لكن جشعك يمنعك من أن تعطينى بعض الفكة فى الشارع »

ولوح بالمسدس فى الآخرين :

ـ « أنتم جميعًا .. تتجاهلوننى وأنا أتسول .. تنفقون على قهوتكم أكثر مما أنفقه على طعامى . »

نظرت إلى هؤلاء الأوغاد فلم يكن منظرهم محببًا .. أكثرهم ينظر لقدميه .. وتخيلت ما يدبره (السوات) الآن فى الخارج .. لقد نزع (مستر) وصلات الهاتف .. لا يريد الكلام مع أحد ولا المفاوضة .. إن جمهوره الوحيد هنا فى هذه القاعة ..

ـ « مَن من هؤلاء يكسب أكثر ؟ »

قلبت الأوراق حتى وجدت أوراق (مالامود) .. كانت المرة الأولى التى يتاح لى فيها إدراك الحجم الحقيقى لنجاح هذا الزميل ، لكنى لم أجد فى ذلك سعادة .. كان يكسب خمسين ألف دولار فى الشهر من الشركة ، ومكافأته الثانوية التى نحلم بها جميعًا خمسمائة ألف ..

ـ « كم من هذا المال أعطيت الفقراء والجياع ؟ »

قال (مالامود) :

ـ « لا أذكر .. لكنى وزوجتى منحنا الكثير للفقراء ونحن سعيدان بهذا . »

طلب منى (مستر) أن أدون كشفًا باسم كل واحد وجواره ما حصل عليه وكم أعطى الفقراء .. استغرق هذا وقتًا لا بأس به ، ولكنى قدرت أنه من الخير لى ألا أتعجل ..

لم يهدد بقتل رهينة كل ساعة ، ولم يطلب إطلاق رفاقه من السجن .. لا يريد أى شىء فى الواقع ..

ضايقنى أن زميلى (بارى نوتسو) يكسب أحد عشر ألفًا أكثر منى .. سوف نناقش هذا فيما بعد ..

ـ « المجموع حوالى ثلاثة ملايين .. الإنفاق العام ١٢٠ ألفًا .. »

قال فى غيظ :

ـ « لا أريد معرفة الإنفاق العام .. المال الذى تنفقونه أنتم الأثرياء البيض على الأوركسترا والمحافل اليهودية والأندية .. أريد معرفة كم أنفقتم على الطعام للجياع .. فى هذه المدينة بينما تحققون الملايين ينام أطفال جياع يصرخون ويبكون من السغب .. كم صرفتم عليهم ؟ »

ـ « ليس بشكل مباشر .. إن .. »

ـ « اخرس ! وماذا عن الملاجئ ؟ وماذا عن العيادات الشعبية التى يأتى لها الأطباء ليعالجوا الفقراء مجانًا ؟ »

نظر لى (رافتر) كأنما بوسعى عمل شىء .. ربما أنظر للأوراق ثم أصيح :

ـ « اللعنة ! انظر ! لقد تبرعنا بنصف مليون دولار للعيادات الشعبية وحساء الفقراء ! »

لكن ليس أنا .. إن (مستر) أذكى مما يبدو ، وأنا لا أرغب فى أن أموت رميًا بالرصاص ..

مشى نحو النافذة ونظر إلى الخارج ، ثم قال بلا مبالاة :

ـ « شرطة فى كل مكان ، وسيارات إسعاف .. »

ثم نسى هذا كله وعاد لنا ليوجه مسدسه نحو (كولبيرن) ويسأله :

ـ « كم أنفقت على العيادات ؟ »

ـ « لا شىء .. »

قالها وأغمض عينيه متأهبًا للبكاء .. لكن (مستر) لم يطلق عليه الرصاص بل وجه المسدس نحو (نوزو) وسأله ذات السؤال .. مر على الواقفين واحدًا تلو الآخر مكررًا ذات السؤال لكنه لم يطلق الرصاص على (رافتر) كما تمنينا ..

ـ « ثلاثة ملايين ولا شىء للفقراء .. أنتم أناس تعساء .. »

* * *

عند العصر قال إنه جائع .. أمرنى أن أتصل برئيسى وأطلب حساء من إرسالية الميثودست ، فهم يضعون فى الحساء خضراوات أكثر ، والخبز ليس تالفا كباقى المطاعم ..

تساءل (رودلف) عبر مكبر الصوت :

ـ « هل المطاعم المجانية تقوم بتوصيل الطلبات ؟ »

ـ « فقط افعل هذا يا (رودلف) .. هات ما يكفى لعشرة .. »

وتخيلت المحامين المتأنقين محاطين بالشرطة يدخلون مطعم الإرسالية وسط الفقراء المنكبين على سلطانيات الحساء .. عشرة طلبات .. خبز زيادة ..

سمعنا صوت الهليكوبتر من جديد .. ما نوع الاقتحام الذى يخططون له والذى يتضمن هليكوبتر ؟ ربما هى هنا لإخلاء الجرحى ..

ظل (أمستيد) يتلوى لفترة ثم صاح :

ـ « معذرة يا مستر .. لكن لابد لى من أن .. من أن أذهب للتواليت »

ـ « تواليت ؟ ما هو التواليت ؟ »

ـ « أريد أن أتبول يا سيدى .. لا أستطيع البقاء أكثر .. »

نظر (مستر) حوله حتى وجد مزهرية من الخزف فى ركن الغرفة ، فأمرنى بأن أفك قيد (أمستيد) ثم نزع الأزهار منها ، وقال :

ـ « التواليت هناك .. »

هكذا أدار (أمستيد) ظهره لنا وتبول بينما نحن ننظر فى الأرض .. ثم أمرنى (مستر) أن أحمل المنضدة أنا و(أمستيد) لنضعها جوار النافذة وأمر المحامين بالجلوس القرفصاء عليها .. لم أعرف السبب .. لكنى قدرت أنه يريد أن يصنعوا بأجسادهم ستارًا ضد القناصة .. أعتقد أنه رأى بعضهم على سطح البناية المقابلة وهذا ما عرفته فيما بعد ..

لابد أن الحياة فى الشارع تعلم الصبر ، لأنه اكتفى بالجلوس والتحديق فينا من خلف عويناته السود ..

فجأة قال :

ـ « أنتم لا تتجاهلون الفقراء فقط .. بل تساعدون فى طردهم من بيوتهم وإلقائهم فى الشوارع .. »

هززنا رأسنا موافقين .. يمكنه أن يتهمنا بأى شىء يشتهيه ..

جاء الطعام أخيرًا فدق الباب .. قال لى (مستر) أن أنذر الشرطة أنه سيقتل واحدًا منا لو رأى أى شخص خارج الغرفة ، وقد شرحت هذا لـ (رودلف) ..

ثم إن (مستر) أمر (أمستيد) بأن يفتح الباب ببطء ..

انفتح الباب ورأيت الطعام على عربة صغيرة .. رأيت أربعة أوعية كبيرة من الحساء وكيسًا مليئًا بالخبز .. تساءلنا عما إذا كان هناك شىء يُشرب ، لكننا لم نعرف الإجابة قط .

لقد دوت طلقة فى الهواء ..

كان قناص شرطة يتوارى خلف خوان جوار مكتب مدام (دفييه) وقد ظفر بمجال التصويب الواضح الذى أراده .. حينما انحنى (أمستيد) ليأخذ الحساء ظهر رأس (مستر) لربع ثانية فأطاره القناص ..

سقط (مستر) على الأرض بلا كلمة .. وسرعان ما تغطى وجهى بالدم .. حسبتنى أصبت وصرخت .. ووثب سبعة المحامين من على المنضدة وهم يعوون ككلاب محترقة .. وسقطت على ركبتى أنتظر انفجار الديناميت .. رفعت رأسى فرأيت (مستر) لآخر مرة على السجادة الثمينة ويداه إلى جواره ، غير قادرتين على بلوغ السلك الأحمر ..

فجأة امتلأت الردهة بفتية (السـوات) بخوذاتهم الشرسة وواقيات الرصاص .. حملونا إلى المصاعد ..

سألونى :

- « هل أصبت ؟ »

لم أعرف .. كان رأسى مغطى بالدم وسائل لزج ، أخبرنى طبيب فيما بعد أنه السائل النخاعى الشوكى ..

* * *

ثـلاثـة

فى الطابق الأول كانت الزوجات والأصدقاء ينتظرون .. دوت صرخات الفرح إذ رأونا ..

وكنت مغطى بالدم لذا أخذونـى إلى الجمـانيزيوم فى القبو .. كانت شركتنا تملكه لكن أحدًا من المحامين لم يكن يستعمله لأننا مشغولون جدًا ، ومن المؤكد أن من يستعمله سيُكلف بالمزيد من العمل ..

حاصرنى الأطباء الذين ليست بينهم زوجتى ، فأقنعتهم أن هذا الدم ليس دمى .. هكذا استرخوا .. ما أردته فعلاً كان حمامًا .. أين (كلير) ؟ لقد ظللت تحت تهديد السلاح ست ساعات وحياتى معلقة ، لكنها لا تقدر على المجىء ؟

كان الحمام دافئًا طويلاً ، وغسلت شعرى عدة مرات ثم وقفت وتركت قطرات الماء تنحدر دهرًا .. عدت لمكتبى بعد استبدال ثياب جمانيزيوم بثيابى فجاءت سكرتيرتى (بولى) والدموع فى عينيها .. كنت بحاجة لرؤية هذا فعلاً .. وسألتنى :

ـ « هل أنت بخير ؟ »

ـ « أعتقد هذا .. »

قابلنى (رودلف) فى الردهة فاحتضننى ، وقال :

ـ « أهنئك »

كأننى حققت إنجازًا ..

ـ « لا أحد ينتظر منك عملاً غدًا .. »

قالت (بولى) وهى تضع المعطف على كتفى :

ـ « هناك صحفيون بالخارج »

نعم .. صحفيون ! ويا لها من قصة للإعلام ! لكن لم تعد هناك قصة .. لو أن الأمور سارت كما توقعنا لدوت طلقة ثم انفجار وتتطاير الأذرع والسيقان من النوافذ مع البث الحى فى نشرة التاسعة ..

ـ « سوف أوصلك للبيت .. »

سرنى بشدة أن أجد من يخبرنى بما يجب أن أعمله ..

كان هواء الليل باردًا عذبًا آلم رئتى .. ووقفت فى الركن أرقب السيرك الدائر أمامى .. سيارة إسعاف تقف بانتظار جثة (مستر) بلا شك ..

أنا حى ! أنا حى !

أغمضت عينى وصليت صلاة شكر ..

★ ★ ★

فى السيارة تكلمت أخيرًا .. قلت لـ (بولى) :

ـ « لم يكن ينوى قتلنا .. »

سرت (بولى) لسماع صوتى ، فقالت :

ـ « وماذا كان يفعله إذن ؟ »

ـ « لا أعرف .. »

ـ « وماذا طلب ؟ »

ـ « لم يقل قط .. من الغريب أن تدركى أننا قضينا عدة ساعات نتبادل النظرات لا أكثر .. »

- « أنت لا تلوم رجال الشرطة طبعًا .. »

- « لا .. ذكرينى بأن أكتب لهم خطابات شكر .. »

كانت شقتى فى (جورج تاون) وقد ترجلت من السيارة شاكرًا (بولى) .. ورفعت رأسى للنوافذ فأدركت أن (كلير) لم تعد بعد ..

قابلت (كلير) بعد أسبوع من انتقالى إلى واشنطن .. كنت قد تخرجت فى (ييل) .. شركة غنية ووظيفة ممتازة .. قضيت عامى الأول أعمل خمس عشرة ساعة يوميًا ستة أيام أسبوعيًا ، وكنت أقابل (كلير) يوم الأحد ..

خطر لنا أنه لو تزوجنا لوجدنا وقتًا أفضل معًا .. وتم الزواج .. ثم عدت لأعمل تسعين ساعة فى الأسبوع .. بدأت تمل بعدى عنها ولا ألومها ، لكن الفرص فى العمل شحيحة والمكافآت عالية قد تبلغ مليونًا فى العام .. الفواتير أهم من الزوجات السعيدات .. الطلاق شائع جدًا عندنا ..

بعد عام بلغت (كلير) ذروة تعاستها وبدأت تتشاجر ..

العمل يزداد صعوبة .. فرصتى تتزايد فى الشركة .. قررت (كلير) أن تدرس فى مدرسة الطب .. فى النهاية صرت أنا وهى مدمنى عمل .. كففنا عن الشجار وصرنا لا نرى بعضنا .. لحسن الحظ أننا لم ننجب ..

إذ دخلت الشقة المظلمة شعرت بأننى أريد (كلير) لأول مرة منذ أعوام .. أنت تواجه الموت فتحتاج إلى أن تحكى عنه .. أن يحتاج لك أحد .. أن يخبروك أنهم يهتمون ..

بعد قليل سمعتها على الباب .. فتحته وصاحت :

- « مايكل .. »

ثم سألتنى باهتمام حقيقى :

- « هل أنت بخير ؟ »

- « بخير .. أين كنت ؟ »

- « فى المستشفى .. »

- « بالطبع .. كان يومى سيئًا .. »

- « أعرف كل شىء .. »

ـ « إذن أين كنت بحق الجحيم ؟ »

ـ « فى المستشفى .. »

ـ « آه .. تسع رهائن فى قبضـة مجنون لمـدة ست سـاعات وأنـت فى المستشفى .. يا لـى من شخص فظ ! »

جلست جوارى على الأريكة ، وقالت ببرود :

ـ « لم أسـتطع المجىء .. أرغمونـا على البقـاء فى المستشفى ، فقـد سمعنا عن موضوع الرهائن .. كـان هنـاك احتمـال أن تحـدث إصابـات .. هـذا وضـع إجبـارى .. ومـا كـان بوسـعى أن أسـاعدك لـو جئـت مكتبك .. »

ذهبتُ للمطبخ وعادت بشراب .. ثم جلست جوارى فى شبه الظلام .. لأننا لم نكن نمارس الاتصـال فقد وجدنـا صعوبة فى بدء المحادثة ..

ـ « هل ترغب فى الكلام عن ذلك ؟ »

ـ « لا . ليس الآن .. »

بالفعل لم أكن أرغب .. لقد بدأت الحبـوب المهدئـة التى أعطونيها تعمل .. فكرت فى (مستر) وكيف كان هادئـًا برغم أنه يحمل مسدسًا ويطوّق خصره بالديناميت ..

لم يكن يضايقه الصمت ..

الصمتَ هو ما أريد وغدًا أتكلم ..

* * *

أربعة

صحوت فى الرابعة من صباح اليوم التالى وأنا أشم رائحة ذلك السائل الذى سال على أنفى من مخ (مستر) .. أصابنى الذعر وانتفضت فى الأريكة حتى سمعت من يتحرك .. (كلير) كانت غافية على المقعد بجوارى ..

قالت فى نعومة :

ـ « كل شىء تمام .. مجرد كابوس .. »

ـ « هلا جلبت لى بعض الماء ؟ »

ذهبت إلى المطبخ .. وجلسنا نتكلم نحو ساعة .. حكيت لها كل شىء وظلت تصغى فى انتباه .. لم نكن نتكلم تقريبًا فى الأعوام الأخيرة ..

كانت تقوم بالمرور فى السابعة ؛ لذا طهونا الإفطار معًا وتناولناه فى المطبخ أمام التلفزيون الصغير .. أخبار السادسة صباحًا تحكى عن دراما الرهائن . (مستر) كان اسمه (ديفون هاردى) .. فى الخامسة والأربعين .. محارب سابق فى فيتنام له صحيفة سوابق صغيرة .. لا أسرة .. لا يوجد حافز واضح ..

كنا فى الثانى عشر من فبراير ، وقد توقعت النشرة الجوية سقوط ثلوج عصرًا .. فى السادسة وأربعين دقيقة قادتنى (كلير) بسيارتها إلى المكتب ، ولم أندهش عندما وجدت سيارتى (اللكساس) تقف وسط العديد من السيارات ، فساحة الانتظار لا تخلو أبدًا . لدينا أناس ينامون فى المكتب ..

دخلت البناية فحييت ضابطى الأمن الجالسين ، واتجهت إلى أحد المصاعد .. ذلك الذى استقللته مع (مستر) أمس .. لماذا اختار شركتنا بالذات ؟ لماذا أنا بالذات ؟ كيف اجتاز موظفى الأمن ؟ لماذا الطابق السادس ؟

ثم لماذا فعل ذلك ؟ هل ربط نفسه بالديناميت لمجرد أن يلوم بعض المحامين الأثرياء على بخلهم ؟ كان بوسعه أن يجد قومًا أغنى وأكثر شراهة ..

توقف المصعد فخرجت منه ..

فتحت باب قاعة الاجتماعات .. لا أثر لشىء .. حتى السجادة التى مات فوقها (مستر) قد تم استبدالها بواحدة أفضل .. وقد تم دهان الجدران بطبقة طلاء طازجة .. حتى ثقب الرصاصة فى السقف اختفى .

لقد أنفقوا مالاً ليلة أمس حتى يصير الحادث كأنه لم يكن .. وماذا كنت أتوقع ؟ نصبًا تذكاريًا ؟ كومة ورود جلبها زملاء (مستر) من المتسكعين ؟

وجدت على مكتبى نسخة من (واشنطن بوست) ففتحتها .. عرفت من المقال المكتوب عن الحادث بعض أشياء .. الديناميت لم يكن كذلك .. كان عصى مكنسة تم طلاؤها وقطعها لتبدو كالديناميت .. المسدس مسروق ..

باقى المعلومات مصدرها من يدعى (موردخاى جرين) وهو محام من العيادة القانونية Law clinic فى الشارع ١٤ قرب (لوجان سيركل) .. كان (مستر) يعمل كساع فى مشتل تعليمى ثم فصل من عمله بغرض تخفيض الإنفاق .. دخل السجن بضعة أشهر للسرقة ثم قذف فى الشارع .. طرد بحكم قانونى من مستودع كان ينام فيه . ليس من الصعب معرفة شركة القانون التى تتولى قضايا كهذه بين آلاف الشركات فى واشنطن ..

لم تعلق الصحيفة على الخبر أكثر من هذا .. لو مات المحامون التسعة الأثرياء لكانت قصة مثيرة جدًا .. حمدًا لله أن الأمر ليس كذلك .. أنا الآن أجلس على

مكتبى أطالع الصحيفة .. كان ممكنًا أن أكون فى المشرحة إلى جوار جثة (مستر) ..

* * *

جاءت (بولى) بعد قليل بابتسامة عريضة وطبق من الحلوى .. فى الحقيقة جاء كل المحامين التسعة .. لو تغيب أحدهم لكانت علامة على الضعف ..

جاءت مكالمة من آرثر .. لدينا فى الشركة حوالى عشرة (آرثرات) لكنه الرجل الذى لا يحتاج لذكر باقى اسمه .. كان (آرثر جاكوب) كبير الشركاء .. المدير التنفيذى .. رجل نحترمه ونعجب به ، وقد كلمته ثلاث مرات لا أكثر خلال سبعة أعوام ..

هنأنى على رباطة جأشى حتى شعرت بأننى بطل .. وقد طلب أن يقابل الرهائن فى العاشرة .. يريد أن يسجل إفادتنا على شريط فيديو ..

ـ « ولماذا ؟ »

كان صوته حادًا كالموسى برغم أعوامه الثمانين وهو يقول :

- « نرى أنها فكرة طيبة .. نعتقد أن أسرته ستحاول مقاضاة رجال الشرطة .. ولسوف يطلب رجال الشرطة منا الدفاع عنهم .. »

حمدًا لله .. أين كنا سنكون من دون دعاوٍ قضائية ؟

رحت أحاول أن أعمل .. أمامى كومة من الملفات .. لكنى لم أستطع .. لقد تغير كل شىء .. لم يعد مكتبى يمثل الحياة والموت ..

لقد رأيت الموت . ومن سذاجتى حسبت أن بوسعى أن أهز كتفى وأواصل حياتى العادية ..

كنت راغبًا فى الرحيل .. قلت لـ (بولى) إن لدى مهمة يجب القيام بها .. ذكرتنى باجتماع (آرثر) .. استقللت سيارتى وشغلت السخان وجلست فترة أفكر .. لو لم ألحق بالاجتماع لتضايق آرثر .. لا أحد يفوت اجتماعًا مع آرثر .. لا بأس .. هذه فرصة نادرة لارتكاب الحماقات .. فأنا تحت تأثير الصدمة ، وسوف يكون على آرثر أن يقبل هذا ..

* * *

كانت السحب تتأهَّب فى الجو والعاصفة قادمة .. مررت بمتسول على قارعة الطريق فتساءلت إن كان يعرف (ديفون هاردى) ..

قدت سيارتى نحو (لوجان سيركل) حتى وجدت العيادة القانونية فى الشارع ١٤ .. كانت بناية من ثلاثة طوابق بنيت بالقرميد الأحمر .. بناية فكتورية رأت أيامًا أفضل .. كان الباب مفتوحًا فمددت يدى للمقبض ودلفت إلى عالم آخر ..

كان هذا مكتب محاماة ، لكنه يختلف عن الرخام والماهوجنى فى شركة (دريك وسوينى) .. كانت هناك أربعة مكاتب معدنية عليها ملفات .. وكان هناك رف مخصص للملفات يستند إلى جدار .. عمر الهواتف ومنسقات الكلمات يتجاوز عشر سنوات ..

كانت هناك امرأة (هسبانية)(*) شرسة تطبع على آلة كاتبة سألتنى :

- « هل تريد شيئًا ؟ »

كان هذا تحديًا أكثر منه سؤالاً .. ولو أن سكرتيرة فى مكتبنا تعاملت هكذا لطردت . اسمها (صوفيا مندوزا)

(*) ذات جذور إسبانية من أمريكا الجنوبية .

كما عرفت من الاسم على مكتبها .. سألتها عمن يدعى (موردخاى جرين) ..

كان (جرين) رجلاً أسود بدينًا فى الخمسينيات له لحية رمادية وعوينات مستديرة .. سألنى بصوت كالرعد :

ـ « كيف أساعدك ؟ »

ـ « (ديفون هاردى) »

نظر لى لوهلة ثم للسكرتيرة ، ثم أشار لى إلى مكتبه .. كان هذا المكتب غرفة ضيقة تتناثر فيها الملفات على الأرض ..

ناولته بطاقة الشركة ، وقلت :

ـ « جئت بالسلام .. لقد كادت رصاصة مستر (هاردى) تفتك بى .. »

ـ « هل كنت هناك ؟ »

وأخذ شهيقًا عميقًا وزال العبوس عن وجهه .. دعانى للجلوس على المقعد الوحيد ، فجلست وأنا أدس يدى فى جيبى معطفى .. أنا الذى بدأت فعلى أن أبدأ الكلام .. لكنه هو الذى قال أولاً :

ـ « أعتقد أن يومك كان عصيبًا .. »

ـ « ليس كيوم (هاردى) .. قرأت اسمك فى الجريدة لذا جئت .. »

ـ « لست متأكدًا مما هو مطلوب مني »

ـ « هل تعتقد أن أسرته سترفع قضية ؟ لو كان الأمر كذلك فلربما وجب أن أنصرف .. »

ـ « لا أسرة له .. يمكننى أن أحدث بعض الضوضاء .. لابد أن الشرطى الذى قتله كان أبيض .. ربما استطعت الحصول على بعض المال من البلدية ، لكن هذه ليست فكرتى عن التسلية ، فالله يعلم أن عندى ما يكفينى من مشاكل .. والآن هل هذا سبب قدومك ؟ »

ـ « لا أعرف سبب قدومى .. لقد ذهبت لمكتبى صباحًا فلم أستطع أن أعمل وهأنذا .. »

ثم سألته :

ـ « أين هو الآن ؟ »

ـ « مشرحة المدينة .. سوف يعدون له جنازة على سبيل الصدقة .. »

- « هل كان مصابًا بالإيدز ؟ »

- « لماذا تسأل ؟ »

- « لأن دمه تناثر على وجهى لحظة مصرعه .. »

- « كلا .. لم يكن مصابًا بالإيدز على قدر علمى .. »

هنا دخل المكتب رجل ملتح رسمت على وجهه علامات المحامى الذى يحاول أن ينقذ العالم .. عرفت فيما بعد أن اسمه (أبراهام) .. لم يحفل (جرين) بتقديمى له ، وقال :

- « الجليد قادم . يجب أن نتأكد من أن كل الملاجئ مفتوحة .. »

ثم التفت لى ، وقال :

- « هل هذا كل ما جئت من أجله ؟ الاطمئنان على الدم ؟ »

- « كلا .. أريد أن أعرف لِمَ فعل ذلك ؟ »

- « كان مختل العقل ككل هؤلاء الذين يمضون حياتهم فى الشوارع وينامون فى البرد غارقين فى الخمر ،

ويطردهم رجال الشرطة .. لابد أن تجن .. كان (هارى) يقيم فى مستودع مهجور اتخذه قواد سابق مأوى لمن لا بيت له .. ثم جاءت شركة اسمها (ريفر أوكس) استطاعت الحصول على هذا المستودع وطردت من فيه . »

- « وهناك احتمال لا بأس به أن شركتى هى التى مثلت (ريفر أوكس) .. »

- « نعم .. يقولون إن الطرد تم دون إخطار مجموعة المتشردين هذه .. وهم كانوا يدفعون إيجارًا .. أى إنهم كانوا مستأجرين ولم يكونوا مقيمين بوضع اليد .. »

- « وأين هذا المستودع ؟ »

- « لم يعد هناك مستودع .. لقد سووه بالأرض الأسبوع الماضى .. »

ونظر لساعته . حقًا أخذت من وقته أكثر من اللازم ..

غادرت المكتب وتجاهلت (صوفيا) التى تجاهلتنى بدورها .

وفى الخارج كانت سيارتى تنتظر وعليها جليد سمكه بوصة ..

* * *

خمســـة

كنت أشعر بالدفء والراحة فى سيارتى ؛ لذا رحت أجوب شوارع المدينة وسط الثلج المنهمر ، لا أعرف أين أذهب .. لكنى لم أرغب فى العودة للمنزل ..

اتصلت بى (بولى) تخبرنى أن (آرثر) يسأل عنى وكذا (رودلف) .. الكل يبحث عنى .. قلت لها إنى عند الطبيب ..

ـ « هل هذا صحيح ؟ »

ـ « ممكن .. »

فى الرابعة مساء كانت المدينة شبه خالية والسماء مظلمة ..

اتجهت إلى الشركة ، حيث أخبرنى رجل الأمن أن أكثر المحامين والموظفين قد عادوا لبيوتهم فى الثالثة بسبب الطقس اللعين .. ركبت المصعد إلى مكتبى وفتحت جهاز الكمبيوتر أتفقد بيانات عملائنا ..

كانت شركة (ريفر أوكس) قد تأسست عام ١٩٧٧ ومقرها فى (هيجرستاون ميريلاند) .. كان محاميها عندنا هو (بريدن تشانس) .. اسم أعرفه .. إنه يعمل فى العقارات فى الطابق الرابع من هذه البناية وعمره ٤٤ عامًا .. درس القانون فى (دوك) وتخرج فى (جستبرج) .. وجدت بيانات استيلاء الشركة على المستودع الذى أعرف أن من بين سكانه مستر (هاردى) .. الرجل الذى أخذ الأمر بشكل شخصى وقرر عقاب المحامين الذين طردوه ..

لم أكن أفهم فى العقارات ولسبب ما كنا نعتبر المختصين بها أقل شأنًا من باقى التخصصات .. كنت أنا أعمل فى مجال الضرائب ، وهو مجال معقد لكنه يلقى أفضل التقدير فى هذه الشركة .. لهذا لم أفهم لماذا يفضل بعض المحامين أن يعملوا فى العقارات ..

اتجهت إلى الطابق الرابع وبحثت عن (تشانس) الذى بدا لى مشغولاً جدًا .. كان البروتوكول يقضى بأن أتصل أولاً وأحدد موعدًا ، وهذا لم يجعل مزاجه أكثر صفاء ..

كان هناك موظف يتابع حديثنا باهتمام وإن تظاهر بأنه يفتش فى بعض الملفات ..

سألته عن موضوع طرد (هاردى) فبدا عصبيًا .. أدركت على الفور أنهم تنبهوا للاسم ولابد أنهم درسوا الملف جيدًا هذا الصباح .. قال لى :

- « كانوا سكانًا بوضع اليد .. »

- « هل أنت متأكد ؟ هل لى أن أرى ملف القضية ؟ »

- « لا .. هذا ليس من شأنك .. وأنا مشغول جدًا لذا أستأذنك فى الرحيل .. »

ابتسمت له وانصرفت ..

عندما مررت جوار الموظف ، سمعته يقول بصوت واضح لا شك فيه :

- « يا له من جحش ! »

يتكلم عن رئيسه .. إذن هناك سبب ما يدعوهم لإخفاء ملف قضية الطرد .. ما هو ؟

★ ★ ★

كان هناك صراع دائم بينى و(كلير) حول أينا أكثر أهمية .. الجراح أم المحامى ؟ هى كانت تملك الكثير من الطموح .. تحلم بأن تكون أعظم جراح أعصاب فى العالم .. الجراحة التى يلجأ إليها الرجال عندما يفشلون فى كل شىء ..

أما أنا فكنت أحلم بمرتبة الشريك .. فى شركتنا يحصل الشريك على مليون دولار ربما مليونين فى العام .. فلو حققت هذا فى سن الخامسة والثلاثين ، فمعنى هذا أن أمامى نحو ثلاثين عامًا من الثراء ورغد العيش .. هذا هو الحلم الذى كان يبقينا فى مكاتبنا ليلاً ونهارًا ..

كنت أفكر فى (موردخاى جرين) .. كلانا درس القانون وكلانا مر بذات الاختبار ، لكننى أساعد عملائى على ابتلاع منافسيهم حتى يضيفوا المزيد من الأصفار لحسابهم ، بينما هو يساعد المتشردين على العثور على مأوى وطعام ..

هنا أخرجتنى من خواطرى (كلير) ، إذ اتصلت بى تسألنى لماذا لم أمرّ عليها فى المستشفى .. قلت لها إننى كنت مشغولاً .. وهى حيلة أخرى بيننا .. كل طرف يتظاهر بأنه شديد الانهماك ..

هذه ليلة أخرى قد فسدت .

★ ★ ★

ستة

أخيرًا توقف الجليد ، وكنت و(كلير) نرشف القهوة فى المطبخ .. كنت أطالع الجريدة فى ضوء الشمس الساطعة ، وعرفت أن المطار الدولى صار مفتوحًا للطائرات بعد فترة توقف .

قلت لها :

ـ « فلنذهب إلى فلوريدا .. »

ـ « الآن ؟ »

ـ « أو البهاما .. يمكن أن نكون هناك قبل العصر .. أنا لن أعمل لعدة أيام .. »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لأننى أنهار .. وفى شركتنا لابد لمن ينهار أن يظفر بإجازة بضعة أيام .. »

قالت :

ـ « لا أستطيع .. »

وهكذا انتهى الموضوع .. كانت مجرد نزوة .. وكنت أعرف كثرة ارتباطاتها .. لم تكن لتأتى معى فى كل الظروف .. إنها محاصرة بالمحاضرات والمرور والجراحات .. حياة طبيب مقيم طموح ..

أوصلتها إلى المستشفى، ولم نتبادل كلمة ونحن نخترق الشوارع المغطاة بالثلج .. قلت لها بلهجة الأمر الواقع :

- « سوف أسافر إلى ممفيس بضعة أيام .. »

قالت بلا اهتمام :

- « حقًا ؟ »

- « أريد رؤية أبوىَّ .. لقد مر عام وأنا لست فى حال تسمح لى بالعمل .. »

- « اتصل بى إذن »

قالتها وفتحت الباب وخرجت .. لا كلمات وداع ولا حرارة لا قبلات ..

لقد انتهى كل شىء .. أكره أن أخبر أمى بهذا ..

* * *

كان أبواى فى أواخر الستينيات من العمر، لكنهما بصحة طيبة .. لقد عملا بجد وادخرا من المال ما يكفى لنعيش فى أعلى الطبقة المتوسطة .. كانا صلبين محافظين وطنيين يحبان بعضهما .. وكانا حزينين بسبب طلاق أخى منذ ثلاثة أعوام ..

كان محاميًا فى أطلانطا تزوج حبيبته فى الكلية .. بعد طفلين فسد الزواج وحصلت هى على حضانة الطفلين ..

استأجرت سيارة من مطار ممفيس ، واتصلت بأمى لأخبرها بقدومى ..

ما إن رأتنى حتى عانقتنى ، وقالت :

- « تبدو متعبًا .. »

وهى تحيتها المعتادة ..

- « شكرًا يا أماه .. وأنت تبدين رائعة .. »

وكانت كذلك فعلاً ..

سألتنى ونحن نرشف الشاى المثلج فى الكوخ الخشبى بالحديقة :

ـ « أين (كلير) ؟ أنتما لا تتصلان بنا أبدًا .. لم أسمع صوتها منذ شهرين »

ـ « بخير يا أماه .. كلانا سعيد وبصحة طيبة وتعمل بلا توقف .. »

ـ « هل هى فى أمان ؟ »

ـ « فى أمان كأى شخص فى واشنطن .. إنها تقيم فى المستشفى ، ورأيى أن هذا أفضل مكان يوجد فيه المرء فى تلك المدينة .. »

ـ « هل تمضيان وقتًا كافيا معًا ؟ »

ـ « ليس تمامًا .. »

بدا قلق الأمهات فى عينيها ، وسألتنى :

ـ « هل هناك متاعب ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « تأكدت من هذا .. بالتأكيد أنت لا تسعى للطلاق .. هل جربت استشارة خبير زواج ؟ لماذا لا تعطى زواجك فرصة ؟ »

ـ « أحاول يا أمى لكن هذا ليس سهلاً .. »

ـ « والسبب ؟ »

ـ « لا شىء .. شخصان يمشيان فى طريقين منفصلين .. أعمل سبعين ساعة فى الأسبوع وهى تعمل الثمانين الباقية .. »

ـ « المال ليس كل شىء .. »

ورأيت الدمع يتجمع فى عينيها .. كنت أعرف ما تفكر فيه .. اثنان فشلا .. كانت تعتبر فشل زواجى فشلاً لها .. حاولت أن أبتعد عن الموضوع بأن أحكى لها قصة (مستر) .. لو كانت قد نشرت فى صحف (ممفيس) فقد فاتها أن تقرأها ..

* * *

قلت لأبى هذا المساء ، ونحن فى ملعب الجولف :

ـ « لقد سئمت هذه الشركة يا أبى .. »

قال أبى :

ـ « مرحبًا بك فى عالم الواقع .. هل تحسب الرجل الذى يعمل على مكبس فى مصنع غير منهك مما يقوم به ؟ على الأقل أنت تكون ثروة .. »

ثم ضرب الكرة ، وقال :

- « هل تفكر فى تغيير مهنتك ؟ »

- « ربما .. »

- « وماذا تعمل إذن ؟ »

- « لا أعرف .. الوقت مبكر لهذا .. »

- « إذن كيف تعرف إن كان العشب أكثر اخضرارًا ؟ »

كنت أهاب هذا الرجل ذا الشعر الأبيض كثيرًا .. لقد علّم ابنيه أن يكافحا وأن يصيرا قويين .. يكونا ثروة وينعما بحياتيهما على الطريقة الأمريكية ..

قلت مفكرًا :

- « أفكر فى الخدمة العامة .. »

- « ما هذا بحق الجحيم ؟ »

- « معنى هذا أن تعمل لخدمة الناس دون أن تحصل على ثروة .. »

قذف الكرة من جديد .. لكنها كانت رمية سيئة لأن اهتمامه تشتت ، وقال :

- « أكره أن أراك تفسد مهنة طيبة يا بنى .. لقد عملت بجد لتصل إلى ما أنت فيه .. أعتقد أنك بحاجة لفترة راحة بعيدة عن العمل ، وهذا كل شىء .. »

دعوتهما للعشاء فى مطعم فاخر ، وبذلنا جهدًا كبيرًا كى لا نتكلم عن الحادث وزواجى والأحفاد الذين لن يرياهم ..

ويوم الجمعة ظهرًا رحلت قبل موعد الطائرة بأربع ساعات .. متجهًا إلى حياتى المرتبكة فى واشنطن ..

* * *

سبعة

بالطبع كانت الشقة خالية عندما عدت مساء الجمعة .. لكن كانت هناك مذكرة على نضد المطبخ .. إن (كلير) ذهبت لأسرتها فى (بروفى دانس) لبضعة أيام مقتدية بخطواتى . لم تقل السبب ، لكنها طلبت أن أتصل بها لدى عودتى ..

اتصلت بأبويها فى وقت العشاء ، فعرفت أنها بخير وسوف تعود عصر الأحد ..

أعتقد أن (كلير) تحكى لأبويها ذات القصة المؤسفة التى أزعجت أبوى بها يومًا ما - على الأرجح الاثنين - سوف نجلس معًا فى المطبخ ونناقش الأمر ونعترف بأن كل شىء انتهى .. سوف نتحدث عن مستقبلنا منفصلين .. أعرف ما سأقول بالضبط ..

خرجت أمشى فى المدينة التى ما زال الجليد يكسوها .. كنت مرهقًا من كثرة العمل .. برغم أننى فى الثانية والثلاثين ، فقد كان علىّ أن أعترف بأننى مرهق ولم أعد طازجًا كما كنت يوم تخرجى ..

كان الجو شديد البرودة لذا ابتعت شطيرة ، وضعتها فى جيبى وعدت لشقتى .. أشعلت نارًا ، وتناولت عشائى فى الظلام وحيدًا جدًّا .. فى أمسيات كهذه كنت أجد لنفسى العذر كى أذهب للشركة .. لكن غيابى لن يحدث أى فارق هناك .. مكتبى سوف يحتله خلال دقائق أى واحد من صف المحامين الشبان ..

فى التاسعة دق جرس الهاتف فأفزعنى . كان هذا (موردخاى جرين) يصيح :

- « هل أنت مشغول ؟ »

- « لا .. ليس تمامًا .. ماذا هناك ؟ »

- « الجليد ينهمر ونحن بحاجة لأيد عاملة هنا .. هل لديك ساعات تمنحها لى ؟ نحن بحاجة لمن يساعدنا .. المطبخ ومطاعم الحساء مزدحمة ، وليس لدى متطوعون يكفون .. »

- « لا أعتقد أننى مؤهل لذلك .. »

- « هل بوسعك أن تدهن الخبز بزبد الفول السودانى ؟ »

- « أعتقد هذا .. »

ـ « إذن أنت مؤهل .. أ ـن على بعد عشرة مربعات من مكتبى عند تقاطع الشار ١٣ مع (إقليدس) .. هناك كنيسة على اليمين اسمها (نزر) .. نحن فى القبو . »

كانت هذه منطقة خطرة .. لابد ، ـ سلاح .. ترى هل يحمل واحدًا ؟ لكنه زنجى وأنا لا .. ماذا عن سيارتى الفاخرة ؟

لكنى قلت له وقلبى يخفق :

ـ « سوف أكون عندك بعد عشرين دقيقة »

ارتديت ثيابًا رخيصة وانتزعت من حافظتى بطاقة الائتمان وكل ما هو ثمين ، ثم وجدت عندى سترة قديمة ملوثة بالقهوة والطلاء ارتديتها . لشد ما أحتاج إلى سترة واقية من الرصاص .. لكن ما إن خرجت إلى البرد حتى شعرت بإثارة عظيمة ..

★ ★ ★

وجدت الكنيسة ومكانًا أوقف فيه سيارتى .. اجتزت المدخل إلى عالم الذين لا بيت لهم ..

أصابنى الذهول من عدد الفقراء المحتشدين فى القبو .. بعضهم يرقد على الأرض ، وبعضهم يلتف فى مجموعات صغيرة .. كل بوصة مربعة احتلها بشر .. البعض يأكل على موائد طويلة .. كان المتطوعون يمررون البطاطين والتفاح ..

المطبخ يعجُّ بالحركة واستطعت أن أرى (موردخاى) يصب عصير الفاكهة فى أكواب ورقية ، بينما ينتظر طابور من البشر فى صبر على الموائد .. كانت الغرفة دافئة وقد امتزجت روائح الطهى لتصنع خليطًا ليس منفرًا ..

سر (موردخاى) لدى رؤيتى ، وقدمنى لاثنين من المتطوعين .. ثم طلب منى أن أحمل صينية من خبز أبيض ، وقال :

ـ « عندك سجق هنا ومستردة ومايونيز هناك .. ضع مستردة على نصف الشطائر ومايونيز على نصفها .. شريحة سجق وشريحتا خبز .. من وقت لآخر اصنع دستة شطائر بزبد الفول السودانى .. مفهوم ؟ »

ثم ضربنى على كتفى واختفى ..

كان المتشردون يقفون بانتظـار دورهم .. كل واحد يأخذ سلطانية حساء وملعقة خشبية .. نصف شطيرة، ثم تفاحـة .. وفـى النهايـة كوبًا من عصير التفـاح .. وجوه لا تفارق الطعام ..

كانوا يأكلون ببطء لاستبقاء مذاق الطعام ودفئـه فـى فمهم أطول وقت ..

فى المطبخ كان هناك من يقطع الخضر ، ومـن يعنـى بالموقد .. حتى هذه اللحظة أنا رجل الشطائر الوحيد ..

قلت لـ (موردخاى) :

ـ « الخبز ليس طازجًا .. »

ـ « نعم .. وهو مجانى كذلك .. يتبرع به مخبز قريب .. هل لك فى شطيرة ؟ »

ـ « شكرًا .. تناولت عشائى .. »

ـ « ما أول كلمة تتداعى إلى ذهنك ؟ »

ـ « لا جدوى .. »

ـ « هذا متوقع .. لكنك سوف تعتاد هذا وتتغلب عليه .. »

ـ « كم من الناس يقيمون هنا ؟ »

ـ « لا أحد .. إنه مجرد مـأوى لتقديم الطعام ، لكن الكنيسة تفتحه فى وقت العواصف .. »

ـ « إذن أين يقيم هؤلاء ؟ »

ـ « بعضهم ـ وهم المحظوظون ـ يسكنون بوضع اليد فى مبان قديمة .. لكن أكثرهم ينامون فى الحدائق أو الشوارع أو محطات الحافلات .. لكن هذا مستحيل الليلة .. »

ـ « وكم عدد الذين لا بيت لهم فى المدينة ؟ »

ـ « سؤال جيد لأنه من الصعب أن تحصيهم .. أغلب الظن أنهم عشرة آلاف .. »

ثم تركنى ليواصل العمل ، وفى هذا الوقت رحل أحـد المسئولين عن عمل الحساء ؛ لذا وجدت مهمتى هى تقطيـع الجزر والكرفس جوار واحـدة من المتطوعـات تدعـى مس (دوللى) كانت تراقب عملى بصرامة ، وقد قالت لى أكثر من مرة إن قطع الكرفس كبيرة ..

سألتها :

ـ « ألم تعتادى بعد رؤية هؤلاء القوم ؟ »

قالت ، وهى تمسح يدها فى منشفة :

ـ « لن أعتاد أبدًا يا عزيزى ؛ مازال المشهد يحطم قلبى ، لكن المثل يقول : سعيد هو الرجل الذى يطعم الفقراء .. »

ثم قلبت الحساء ، وقالت :

ـ « الدجاج جاهز لك .. »

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « معناه أن عليك أن ترفعه عن الموقد وتصب الحساء فى إناء ، ثم تنزع العظام عن الدجاج .. »

كان هناك فن خاص لنزع العظام باستعمال طريقتها ، لكن أناملى احترقت وامتلأت بالفقاقيع حينما انتهيت .

ماذا أفعله هنا ؟ وماذا لو رآنى رفاقى ؟ هنا فى قبو كنيسة فى بقعة خطرة من واشنطن .. وسط الذين لا بيت لهم .. فقط كنت أعرف أن سيارتى قد ضاعت للأبد على الأرجح ، ومن المستحيل أن أخرج الآن من دون (موردخاى) .. فتى أبيض ثرى فى هذا المكان هو دعوة للسطو أو الاعتداء ..

إنها الثالثة صباح السبت وقد وجب أن أرحل .. مشى معى (موردخاى) فى الشارع ، وشكرنى على مجيئى .. كانت سيارتى حيث تركتها ، وقد غطاها المزيد من الثلج ..

وقف الرجل جوار الكنيسة يرقبنى وأنا أبتعد ..

* * *

ثمانية

لم أعمل ساعة واحدة فى شركة (دريك وسوينى) منذ لقائى بـ (مستر) يوم الثلاثاء .. كنت أحصل ثمانى ساعات يوميًا ستة أيام فى الأسبوع .. فإذا تأخرت فى تحصيل الساعات كنت أمضى اثنتى عشرة ساعة يوم الأحد ..

كنت الآن أرمق السقف فى غرفة نومى صباح السبت .. لا أستطيع ولا أريد الذهاب للعمل .. الأوراق الوردية الخاصة بمكالمات الهاتف التى تضعها (بولى) على مكتبى ، والاجتماعات .. والثرثرة والقيل والقال .. مع (كيف حالك ؟) من هؤلاء القلقين على سلامتى .. ثم العمل نفسه .. شركة تملك بليون دولار تقاضى أخرى ..

أعترف الآن أننى لم أحب عملى قط .. كان مجرد وسيلة ..

أرغمت نفسى على مغادرة الفراش والوقوف تحت الدوش ، ثم أفطرت ببعض الكرواسان والقهوة ..

وصلت إلى الشركة وعلى الفور قابلت أحد زملائى .. (بروس) شىء ما دخل المصعد وقال لى بجدية :

- « كيف حالك ؟ »

- « بخير .. وأنت ؟ »

لحسن حظى رحل فى الطابق الثانى .. وصعدت إلى الطابق الذى يوجد فيه مكتبى لأسترخى فى مقعدى الجلدى .. عددت على مكتبى ٣٩ مذكرة وردية تحوى المكالمات التى وصلتنى .. من الواضح أن (رودلف) اتصل كثيرًا وكان فى حالة جنون .. خمنت هذا من خط (بولى) ! ليذهبوا إلى الجحيم .. أريد أولاً أن أنهى قهوتى فى سلام ..

كنت أفعل هذا عندما ظهر (رودلف) .. لابد أن الجواسيس أبلغوه ..

جلس ووضع ساقًا على ساق ، ثم قال :

- « مرحبًا .. »

- « مرحبًا يا (رودى) .. »

لم أقل له قط (رودى) فى وجهه ، وإنما (رودلف) .. سألنى دون أى تعاطف :

- « أين كنت ؟ »

- « فى ممفيس .. »

- « ممفيس ؟ »

- « نعم .. أردت أن أرى أبوى .. ثم إن طبيب الأسرة النفسى هناك .. أراد أن يلاحظنى يومين »

كنت أكذب ولم يضايقنى الكذب .. إن الشركة تستطيع متى شاءت أن تكون خشنة بل قاسية ، وأنا لست فى حالة تسمح لى بتلقى لوم (رودلف) ..

- « كان عليك أن تبلغ أحدًا .. »

قالها فى خشونة ، لكنى كنت أعرف أنه سيلين .. بعد قليل قال :

- « هل أنت بخير؟ »

- « الطبيب النفسى قال إننى بخير .. »

ابتسم ثم غادر مكتبى .. سوف يتصل بأحد المديرين ليخبره أن فارس الشركة قد عاد إلى سرجه ..

ظللت على المكتب ساعة أليمة ، أحاول أن أفهم شيئًا من القصاصات هناك .. فى النهاية غادرت المكان .. فررت دون أن يقبض على أحد ..

* * *

توقفت أمام صيدلية تعطى تخفيضات فى (ماساتشوستس) وابتعت أشياء كثيرة .. حفاضات للأطفال وحلوى وثيابًا .. لم أستمتع فى حياتى بإنفاق مائتى دولار كما شعرت فى هذه اللحظة ..

توقفت عند الكنيسة غير شاعر بالخوف كما كنت أمس لكنى ما زلت خائفًا .. تركت كل شىء فى السيارة ؛ لأنى لو مشيت مثل (بابا نويل) لبدأت مظاهرة من حولى ..

رحبت بى مس (دولى) وأشارت إلى كومة من الخضراوات والجلود التى يجب أن تنتزع .. وقفت أساعدها حتى ظهر (موردخاى) ، وحين تلاقت عينانا ابتسم ..

وقفت معه نقدم الطعام على الموائد .. كان صبُّ الحساء فنًّا .. ضع حساء كثيرًا ولسوف يرمقك الطاعم فى كراهية .. ضع خضرًا أكثر ، وسرعان ما لن تجد سوى الحساء فى الإناء الكبير .. كان (موردخاى) قد أجاد هذا الفن إلى درجة الكمال .. وكان يوزع الاهتمام ويرحب بالجميع ، فكان البعض يرد التحية والبعض لا يرفع رأسه عن طعامه ..

عند الظهيرة ازدادت صفوف الجياع ، وظهر متطوعون من حيث لا تدرى ..

عندما بدأت الصفوف تقل ، ملأ كل منا سلطانية حساء ووقفنا نأكلها فى المطبخ جوار الحوض .. وقال لى موردخاي :

ـ « المشردون لا يهدءون .. يحبون التنقل من مكان لآخر ولديهم طقوس وروتين وأماكن مفضلة وأصدقاء شوارع .. »

ثم دعانى إلى الخروج فى جولة .. كانت سيارته الـ (توروس) تقف خلف سيارتى (اللكساس) .. فقال وهو يشير لها :

ـ « هذه لن تبقى طويلاً فى هذه البقعة من المدينة .. لو كنت تنوى أن تمضى وقتًا أطول هنا فعليك أن تفكر فى مبادلتها بواحدة أصغر .. »

وانطلقنا فى سيارته .. خلال لحظات أدركت أن (موردخاى) سائق شنيع ، وحاولت أن أربط حزام مقعدى لكنه كان محطمًا .. اقتادنى عبر شوارع لم أرها من قبل .. شوارع ضيقة فقيرة قذرة .. كل ركن له قصة .. كل شارع له تاريخ .. يعرف كل متسكع ويعرف كل رجل دين ..

أرانى مدرسة القانون التى درس فيها وعمل ليلاً .. أرانى المكان الذى كان باعة الهيروويين يقفون فيه . ابنه الثالث (كاسيوس) مات هنا على جانب الطريق ..

طلب منى أن أمر معه على مكتبه ليتفقد بريده ، وقال وهو يدخل المكان الرطب المعتم :

ـ « كان عندنا تسعة محامين فى الماضى .. كان هذا عندما كنا نتلقى منحة الحكومة . اليوم لم نعد نتلقى مليمًا بفضل الجمهوريين فى الحكومة .. كل عام نفقد محاميًا بسبب تخفيض الميزانية .. لا أعتقد أننا سنكون موجودين بعد خمسة أعوام .. »

كان البرد شديدًا فسألته :

ـ « هل نسيت دفع فاتورة التدفئة ؟ »

ـ « ربما .. نحن لا نعمل فى أيام العطلة ؛ لأن هذا يوفر المال .. ومن المستحيل أن تبرد أو تدفئ هذا المكان . »

كنت أشعر بأنه يقودنى إلى الشرك ، لكنى ظللت أسأله عن عمل المحامين فى هذه المؤسسات .. قال لى :

ـ « أغلب هؤلاء القوم المشردين لا يعرفون حقوقهم ، هنا يكون دور المحامى أن يتصل بموظف

بيروقراطى متكاسل ليوبخه .. يكون لهذا مفعول السحر . منذ شهر ذهب أحد عملائنا إلى مركز التأمينات الاجتماعية لتقديم طلب .. مجرد عمل روتينى .. إنه فى الستين من عمره ، وظهره يؤلمه بشدة .. هكذا يكون حالك عندما تنام على الصخور والأغصان لعشر سنوات .. انتظر ساعتين وفى النهاية أدخلوه .. انتظر ساعة أخرى ثم وقف فى طابور حتى واجه سكرتيرة سليطة اللسان .. لقد أهانته وانتقدت رائحته . وفى النهاية انصرف من دون أن ينجز شيئًا .. اتصل بى فاتصلت بهم .. لقد ألقيت عليهم موعظة هناك .. على السكرتيرة والمدير ومدير المدير .. حتى أرغمت السكرتيرة على الوقوف أمام موكلى ، والاعتذار ثم أنهت أوراقه .. هكذا تكون العدالة .. هذا هو العمل القانونى المختص بالشوارع .. كرامة الإنسان .. »

لم يكن يطيق البيروقراطية ، وكانت فكرته عن عمل المحاماة هى الصراخ والزمجرة ..

وواصل قصصه التى تنتهى كلها بمحاميى الشوارع باعتبارهم الأخيار ، والمشردين هم المنتصرون .. وكنت أفهم أنه يمهّد الأرضية لما سيطلبه بعد ذلك ..

* * *

تسعة

عندما عادت (كلير) عرفت أن أخاها أصيب بداء (هودجكين)(*) لذا اجتمعت الأسرة فى (بروفى دنس) .. أصغيت لها تحكى عن عطلة نهاية الأسبوع وصدمة الأخبار وكيف بكوا .. إن أسرتها أسرة دموع وأحضان .. وقد اندهشت لأنها لم تطلبنى معها ..

سوف يبدأ العلاج حالاً والأمل كبير ..

سرها أن تعود للبيت وأن تلقى بحملها على كاهل أحد . كان الأمر شبه رومانسى برغم أننى امتلأت بالندوب حتى لم أعد قادرًا أن أكون عاطفيًا .. أبديت جزعى بسبب الأخبار ، وقلت عبارات مناسبة ، فلم يكن هذا ما توقعت ولا ما أردت ..

كنت قد أعددت نفسى لمشادة عنيفة ، بعدها نستعد لمواجهة الأمر بشجاعة .. لننى لم أكن فى مزاج يسمح بأى نوع من العاطفة ..

(*) نوع من السرطان الليمفاوى .

قالت لى إننى أبدو مرهقًا فكدت أشكرها .. ظللت صامتًا حتى انتهت ثم بدأنا نتكلم عنى .. أخبرتها بكل شىء عن حياتى كمتطوع فى الملاجئ .

أثار هذا دهشتها .. لم أعد نفس الشخص الذى كنته منذ أسابيع ، ولم تكن متأكدة إن كانت تحب هذا الجديد أكثر من القديم .. أنا نفسى غير متأكد ..

* * *

عشـــرة

بما أننى و(كلير) مدمنا عمل ، فلم نكن بحاجة لاستعمال منبه ليوقظنا ، خاصة صبيحة الاثنين حينما نواجه أسبوعًا كاملاً من التحديات .. صحونا فى الخامسة وتناولنا الإفطار ثم انطلقنا فى طريقينا ، وكلانا يرغب فى أن يكون أول من يرحل ..

فى طريقى للمكتب أزمعت أن أضع حاجزًا بينى وبين متشردى الشارع .. سأجد وقتًا للعمل التطوعى وأحافظ على صداقة (موردخاى) ، ولربما مررت من وقت لآخر للمساعدة فى إعداد وجبات الجياع .. سوف أكون مفيدًا للفقراء أكثر وأنا فى منصبى .. أكثر بكثير مما أفيدهم لو صرت محامى فقراء آخر ..

إذ قدت سيارتى للمكتب شعرت بأننى بحاجة إلى يوم طوله ٤٨ ساعة كى أتمكن من استعادة جدولى .. لقد تأثر عملى كثيرًا فى الفترة السابقة ، ولا يثب من هذا القطار المسرع إلا أحمق ..

ركبت مصعدًا مختلفًا هذه المرة ، محاولاً أن أنسى (مستر) ..

لقد اتجهت لمكتبى قبل السادسة صباحًا .. شاعرًا بأن عودتى شىء جميل .. بدأت بتفقد جريدة (وول ستريت) لأنى أعرف أنها لن تتكلم عن سكان الشوارع ..

على مكتبى وجدت مظروفًا من المانيلا .. الطراز الذى تستعمل شركتى الملايين منه .. ولم يكن عليه أى بيانات الأمر الذى أثار ريبتى ..

فتحت الملف فوجدت ورقة من أوراق شركتنا الرسمية .. وفيها قائمة أسماء الذين تم طردهم من ذلك المستودع .. وكان الاسم الرابع هو (ديفون هاردى) ..

فى نهاية الورقة كتب مرسل الرسالة المجهول : « الطرد كان خطأ قانونيًا .. »

كتبها بحروف كبيرة واضح أنه حاول بها ألا يتم تعرفه لو أننى عرضت الورقة على خبير خطوط ..

أشرقت الشمس وسمعت صوت (بولى) فحييتها كأنه لا توجد مشاكل ..

كان الصباح مزدحمًا بالمؤتمرات والمقابلات ، وقد أديت عملى بكفاءة برغم أننى لا أذكر حرفًا مما قيل .. وقد بدأت الشكوك بصدد حالتى العصبية تتلاشى ..

اتصل بى أبى ليطمئن علىّ .. قال إن السماء تمطر فى (ممفيس) وإنه جالس مع أمى فى البيت قلقين علىّ .. سره أننى ما زلت فى الشركة ، أصنع الثروة وأبحث عن المزيد ..

اتصل بى أخى (وارنر) من أطلانطا .. كان فارق السن بيننا قد جعلنا متباعدين فى طفولتى ، وكان محاميًا مهمًا يعمل بالساعة ؛ لذا أدركت أن المحادثة مختصرة ..

قال لى :

ـ « سمعت من أبى الأخبار .. أعرف ما تشعر به .. عندما كنا فى مدرسة الحقوق سألونا عمن يرغبون منا فى العمل العام فتحمسنا جميعًا .. بعد التخرج بسنتين صرنا جميعًا لا نريد إلا المال .. لكننى جربت العمل العام لأن شركتنا تسمح لك باثنى عشر شهرًا إجازة تمارس فيها ذلك ؛ ثم تعود لتجد كل شىء لم يتغير .. »

يا لك من عبقرى ! هذا هو الحل ! اثنا عشر شهرًا أعمل فيها ما يحلو لى ، ثم أعود لأجد وظيفتى كما هى ..

ـ « أنت تعرضت لصدمة كبيرة ، وكدت تقتل .. هذه نقطة مهمة يجب أن تلعب عليها .. قل إنك بحاجة لعام تستجمع فيه نفسك .. بعدها تعود لهذه الشركة .. »

كان شخصية قوية تعرف ما تريد ، ولم يخسر جدالاً قط .. وهكذا ودعته ، ثم تناولت الغداء فى مطعم فاخر مع (رودلف) وعميل فيما يدعى بـ (غداء عمل) .. ومعنى هذا أنه لا خمور ، وأن العميل سيدفع لنا بالساعة لأننا سنناقش قضيته أثناء الغداء .. (رودلف) يتقاضى ٤٠٠ دولار فى الساعة أما أنا فأتقاضى ٣٠٠ .. استغرق الغداء ساعتين أى إن العميل دفع ١٤٠٠ دولار .. الشركة تدفع ثمن غدائنا لكنها بشكل ما ستضيف الثمن على فاتورة العميل ..

فى الخامسة عصرًا استطعت أن أكون وحيدًا للمرة الأولى ، ففتحت المظروف ..

يتكرر اسم (تشانس) أكثر من مرة فى هذه الأوراق .. إنه المحامىَ الذى طردنى تقريبًا من مكتبه عندما سألته عن قضية الطرد .. مفتاحى للحل هو الموظف الذى كان يتابع المحادثة ، والذى وصف (تشانس) بأنه جحش ..

أجريت بعض مكالمات حتى توصلت إلى أن اسم الموظف هو (هكتور بالما) .. قررت أن أقابله لكن خارج الشركة ..

* * *

دعانى (موردخاى) إلى العشاء معه فى مطعم قريب ، وقد وافقت بعدما أكد لى أن الطعام ليس حساء ..

قال لى :

ـ « قصة آل (بيرتون) تتضخم .. »

ـ « آسف .. تعرف أننى كنت فى كهف فى الفترة الماضية ، فما هذا الموضوع ؟ »

ـ « قضية صحفية كبرى .. أربعة أطفال مشردون وأمهم وجدوا ميتين فى سيارة يبيتون فيها قرب (كابيتول هول) .. هناك حيث يخططون للإصلاحات التى ستقذف أمهات أكثر إلى الشارع .. هذا جميل . لقد اتصلت بمجموعة من الناشطين لحضور جنازة هؤلاء البؤساء .. سوف تصور الصحافة أربعة توابيت صغيرة وتابوتًا كبيرًا للأم .. سيكون هذا رائعًا .. »

ـ « هذا يعنى أن موتهم لم يمر هباء .. »

بما أننى محام فإننى أتوقع شيئًا وراء أية دعوة للغداء أو العشاء .. وقد رحت أتساءل عما يريد ..

لكننى فوجئت بعد ذلك عندما عرفت من أسماء الموتى أن الأطفال وأمهم كانوا من هؤلاء الذين طردتهم شركتى من المستودع ، والذين وجدت أسماءهم فى المظروف الغامض .. لا يمكن أن أعلن هذا ؛ لأننى أعرفه بحكم عملى فى الشركة .. وهو نتيجة ثقة العميل بنا ..

قال لى (موردخاى) ما كنت أتوقعه :

ـ « نحن بحاجة لمحام جديد يمضى عشر ساعات فى الأسبوع .. نحتاج لمحام يجلب لنا بعض المال لأن المؤسسة تنهار .. بقاؤنا يعتمد على ذلك .. »

ـ « وما هى جوانب هذه الوظيفة .. ؟ »

ـ « محاماة الشوارع .. أنت رأيت العمل عندى .. (صوفيا) متنمرة و (أبراهام) جحش .. الزبائن رائحتهم كريهة .. »

ـ « وكم تدفعون ؟ »

ـ « يمكن أن أعدك بثلاثين ألفًا فى العام .. أنت متعلم وسيم تجيد كسب الناس وكل هذا الهراء ؛ لذا أعتقد أنك قادر على جلب بعض المال .. »

كنت أتوقع هذا العرض .. لكنى كنت خائفًا .. لقد فتح لى بابًا كنت أخشى أن أجتازه ..

قال لي :

ـ « أنت لا تفعل هذا من أجل المال على كل حال .. بل تفعله من أجل روحك .. »

روحى هى التى أبقتنى ساهرًا طيلة الليل .. هل بوسعى أن أرحل من شركة (دريك وسوينى) ؟

فى الواقع معنى رحيلى أن أقول الوداع للملايين .. كل ما حلمت به سوف يصير ذكريات باهتة ..

ربما كان الوقت مناسبًا .. لقد فشل زواجى وحان الوقت لبعض التغيرات الدرامية على كل الجبهات ..

★ ★ ★

أحد عشر

أبلغت الشركة أننى مريض اليوم .. « أعتقد أنها الإنفلونزا .. »

لكن (بولى) كانت تريد تفاصيل .. حمى أم احتقان فى الحلق أم صداع ؟ أم كل ما سبق ؟ لا يهم .. سوف تملأ نموذجًا ترسله لـ (رودلف) كما هى العادة فى هذه الأمور ..

كان (رودلف مايرز) قد صار شريكًا فى سن الثلاثين .. كانت المحاماة هى كل حياته كما يمكن أن تخبرك زوجاته الثلاث السابقات .. ولو استمرت حياته كما يخطط لها فلسوف يصير أقدم شريك عامل .. وفيما عدا هذا كان كل شىء يلمسه يتحول إلى كارثة ..

كان فى انتظارى فى السادسة مساء فى مكتبه .. وكان أكثر العاملين قد انصرفوا .. أغلقت الباب ، وجلست أمامه ، فقال لى :

- « حسبت أنك مريض .. »

قلت :

- « أنا راحل يا (رودلف) .. »

قلتها بشجاعة لكن معدتى كانت تعتصر ..

أزاح الكتب جانبًا وأعاد غطاء قلمه الثمين ، وقال :

- « أنا مصغ .. »

- « أنا راحل .. لدى عرض بالعمل لدى شركة محاماة معنية بالشئون العامة .. »

- « لا تكن غبيًا يا (مايكل) .. لسوف تصير شريكًا خلال ثلاثة أعوام .. »

- « أنا لست غبيًا .. فقط تلقيت عرضًا لا بأس به .. »

- « لا يمكن أن تنهار لمجرد حادث كهذا .. لم يفعل واحد من الرهائن مثلك »

- « هذا من حسن الحظ .. لكن هذا شأنى الخاص .. »

ـ « خذ إجازة لشهر .. اعمل مع المشردين لو أردت لكن عد .. هذا أسوأ وقت للرحيل »

ـ « لا أريد أن تكون هناك شبكة أمان تحتى يا (رودلف) .. هذا يفقد الأمر متعته .. »

ـ « وماذا عن (كلير) ؟ »

لم يكن يعرفها ، وهو على كل حال آخر من يصلح مستشار زواج فى الشركة ..

ـ « ستكون بخير .. أنا راحل الجمعة .. »

أغمض عينه ، وتنفس بعمق .. ثم قال :

ـ « لا أصدق ما أسمعه .. »

اتصلت بـ (بولى) أخبرها ، لأنى لم أرد أن تكون آخر من يعلم .. ثم ابتعت بعض الطعام التايلاندى ، وعدت لشقتى وبدأت أسمع مقاطع دورى الذى سأؤديه ..

* * *

مع الأعوام تعلمت أنا و(كلير) فن تجاهل بعضنا بدلاً من الشجار ..

كانت الساعة العاشرة وكانت قد تناولت عشاءها مبكرًا ، لذا ذهبت إلى المدفأة وأوقدت النار ، ثم جلسنا فى مقعدينا المفضلين .. بعد دقائق ، قلت لها :

ـ « يجب أن نتكلم .. »

سألت بلا مبالاة :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

ـ « أفكر فى ترك (دريك وسوينى) .. »

ـ « حقًا ؟ »

وأعجبت ببرودها .. فأردفت :

ـ « أنا متأهب لتغيير .. فجأة صار العمل فى هذه المؤسسات الضخمة مملاً لى .. أريد عمل شىء يساعد الناس .. لقد حكيت لك عن (موردخاى جرين) .. الوظيفة عنده ، وسوف أبدأ الاثنين .. »

ـ « الاثنين ؟ إذن أنت اتخذت قرارك بـالفعل دون أن تطلب رأيى .. »

للحظة لمع الغضب فى عينها ثم تلاشى .. كانت سيطرتها على نفسها مذهلة ..

ـ « هل لى أن أعرف تأثير هذا على دخلنا ؟ »

ـ « سيؤثر .. الراتب ثلاثون ألف دولار فى العام »

ـ « ثلاثون ألفًا ؟ هذا أقل من راتبى أنا .. »

ككل طالب مجنون فى البلاد كانت تؤكد عندما دخلت عالم الطب أنها لا تريد المال .. تريد أن تساعد البشرية .. كلنا كذبنا أو لم نفهم أنفسنا ..

كانت ترمق النار ويبدو أنها تعيد الحسابات .. إيجـار الشقة ٢٤٠٠ دولار فى الشـهر وهـى شـقة ممتـازة فاخرة .. لكننا لا نقيم فيها تقريبًا ..

ما زلت مندهشًا من قلة ما ادخرنـاه من مـال خـلال ست سنوات .. كان المال يبدو بلا نهاية ..

قالت :

ـ « أنا متعبة .. »

وأفرغت كأسها ، ونهضت إلى غرفة النوم ..

يا لتأثرها ! خطر لى أننا لم نعد نملك قدرًا من الضغينة يسمح بمشاجرة طيبة ..

بالتأكيد تحسبنى جننت ، لكنها لم تستطع أن تنتقد القديس الذى صرته .. وضعت لوح خشب آخر فى الموقد ، ونمت على الأريكة ..

* * *

اثنا عشر

على الغداء الفاخر الذى دعانى إليه (رودلف) قدم لى عرض الشركة السخى ، وهو أن تمنحنى الشركة إجازة لمدة سنة أمارس فيها محاماة الشوارع كما أريد .. مقابل نفس الأجر الذى يمكن أن أناله من تلك المؤسسة الخيرية .. لابد لشركتنا من أن تسهم فى إنقاذ الجياع بدورها ، وبعد سنة أعود لها وقد أعدت شحن بطارياتى ..

كان العرض سخيًا وبالطبع من العسير أن أرفضه .. لذا طلبت مهلة للتفكير . فى العام الماضى حققت للشركة ٧٥٠ ألف دولار ، لذا يدعوننى للأكل فى هذه القاعة الفاخرة ، وأصغى لخططهم للاحتفاظ بى ..

قابلت (هكتور) كاتب المحامى فى المكتبة بالطابق الثالث .. لم أرد أن أقابله مباشرة حتى لا يشعر (تشانس) بشىء .. بعيدًا عن كاميرات الأمن وأى شىء آخر ..

سألته بشكل مباشر :

ـ « هل أنت من وضع ذلك الملف على مكتبى ؟ »

لم يكن هناك وقت للألعاب .. نظر لى وتلفت حوله كأنما هناك قناصة يطاردونه :

ـ « أى ملف ؟ »

ـ « ملف شركة (ريفر أوكس) الخاص بطرد المقيمين فى المستودع .. »

لم يكن يعرف مدى معلوماتى فظل ينظر لى فى حيرة ، فسألته :

ـ « أين الملف ؟ »

راح يقلب الكتاب الذى يحمله كأنما هو مشغول جدًا ، وقال :

ـ « (تشانس) يحتفظ بكل الملفات فى مكتبه .. »

صرنا الآن نتكلم همسًا .. بالفعل لو رآنا أحد الآن لقدر أننا بصدد أمر مريب ..

ـ « وما الموجود فى الملف ؟ »

ـ « لدى زوجة وأربعة أطفال ، ولست أبغى أن أُطرد .. أنت ستترك الشركة ولا يهمك الأمر .. »

الأنباء تنتقل هنا سريعًا .. ترى من الذى نقل النبأ لكل الشركة ؟ هل (رودلف) ؟

- « أريد هذا الملف .. »

- « ليس عندى .. لو أردت أن تحصل عليه فعليك أن تسرقه .. »

- « جميل .. وكيف أجد المفتاح ؟ »

- « ليس معى .. »

- « إذن من أين جئت بقائمة أسماء المطرودين ؟ »

نظر لى فى عدم فهم ، ثم قال :

- « لا أعرف ما تتكلم عنه .. أنت مخبول تمامًا . »

وابتعد .. توقعت أن يتوقف لكنه ابتعد .. ابتعد حتى غادر المكتبة ..

* * *

أغلقت الباب ورحت أرمق الغرفة .. أبتسم لكل شىء أتركه خلفى ، وفى كل لحظة أشعر بأن الضغط يزول .. لن أعمل ثانية والساعة تلتف حول حلقى .. لن أعمل

٨٠ ساعة فى الأسبوع خشية أن يعمل زملائى ٨٥ .. لا كوابيس بصدد أن تفوتنى فرصة أن أصير شريكًا .. اتصلت بـ (موردخاى) وأخبرته أننى اخترت العمل معه ، فضحك وتندر على تدبير طريقة للإنفاق علىّ ..

عندما عدت للدار فى السادسة وجدت (كلير) جالسة إلى منضدة المطبخ ، وأمامها كومة من الأوراق وآلة حاسبة وأوراق حسابات الكمبيوتر ..

قالت لى فى برود :

- « أقترح الطلاق على أساس الاختلافات غير القابلة للتقريب .. نحن لا نتشاجر ولا نلوّح بأصابعنا فى وجه بعض .. لكننا متفقان على أن زواجنا انتهى »

وانتظرتْ أن أقول شيئًا .. ماذا عساى أقول بعد هذا ؟ ما بوسعى هو أن أكون باردًا مثلها .. قلت لها :

- « بالتأكيد .. »

وإن ضايقنى أنها ترغب فى الطلاق أكثر منى .. لقد طلبت رأى محام كذلك لمعرفة ما لها وما عليها ..

- « ولماذا تحتاجين إلى رأى محام ؟ هل تعتقدين أننى قد أخدعك ؟ »

ـ « أريد أن أشعر بالحماية .. أنت محام لذا أريد أن يكون معى محام .. الأمر بسيط .. »

ثم قدمت لى الحرز (أ) : بيان بممتلكاتنا .. والحرز (ب) : طريقة مقترحة لتقسيم هذه الأملاك .. وأدهشنى أنها لم تقسم مناصفة بل اختصت نفسها بالجانب الأكبر ..

ـ « هذا التقسيم ليس عادلاً .. »

قالت فى ثقة :

ـ « وهذا طبيعى .. لأننى لست الشخص الذى يمر بأزمة منتصف العمر .. أنت تريد أن تجن .. هذا حقك .. لكن لا تتوقع منى أن أتضور جوعًا »

تمنيت أن أصرخ وأتشاجر ، لكن هذا ليس بوسعى . لا أستطيع أن أقذف الأشياء .. ولن نبكى .. أى طلاق هذا ؟ طلاق معقم غريب ..

الحرز (ح) : كان قائمة دقيقة لمحتويات البيت .. المناشف وأغطية الفراش .. قلت لها :

ـ « خذى كل شىء تريدينه .. »

كنت أحتفظ بهذه الأشياء ليس للذة الاقتناء بل عن كراهية لفكرة نقلها ..

سوف نوقع وثيقة انفصال .. وبعد ستة أشهر نذهب إلى المحكمة لننهى الزيجة رسميًا ..

أخذت معطفى وخرجت أمشى فى شوارع (جورج تاون) .. متسائلاً كيف تغير كل شىء بهذا الشكل الدرامى .. الأمور تتحرك بأسرع مما أستطيع أن أوقفها ..

* * *

ثلاث عشر

لم تقبل الرءوس الكبرى فى الشركة ذلك العرض الذى قدمه (رودلف) بمنحى إجازة لمدة عام ، فهى سابقة خطيرة ، وقد خافوا أن تنهال عليهم المطالبات بمعاملة مماثلة .

لكن لم يكن هذا الموضوع فى ذهنى وقتئذ ، فقد صرت مطلقًا ووحيدًا وبلا بيت كذلك .. سوف أبيع السيارة لأستغنى عن قسطها الذى يبلغ ٤٨٠ دولارًا فى الشهر .. وقضيت أكثر الصباح أبحث عن شقة جديدة .. للأسف كانت أرخصها تكلف ١١٠٠ دولار فى الشهر ، وهذا سعر أعلى بكثير من قدرات محامى شوارع ..

عندما عدت للشركة ظهرًا وجدت مظروفًا آخر من المانيلا على مكتبى .. كان المظروف يحوى مفتاحين ، ومعهما مذكرة تقول : « المفتاح الأول لمكتب (تشانس) .. الثانى لخزانة الملفات . الدرج تحت النافذة .. انسخ الملفات ثم أعدها للشركة لأن (تشانس) من النوع كثير الريبة .. »

هنا ظهرت (بولى) فجأة كعادتها .. لا قرعات على الباب ولا صوت ، وإنما تظهر فجأة كشبح .. كانت قد عملت معى أربع سنوات ، ولم تكن علاقتنا لصيقة لهذا الحد .. سرعان ما يتم تعيينها فى مكان آخر ..

لم أدر إن كانت لاحظت المظروف أم لا ، لكنها تشاغلت بوضع حاجياتى فى صندوقين من الورق المقوى .. وتساءلت عن الذى وضع المظروف .. كيف استطاع أن يمر لمكتبى أمام سمعها وبصرها ؟

أغلقت الباب ورحت أتأمل المظروف لأقرر ما يجب عمله به .. كنت قد افترضت أشياء : أولاً : أن المفتاح صحيح .. ثانيًا : هذا ليس مقلبًا .. ثالثًا : الملف فى المكتب فعلاً .. رابعًا : بوسعى سرقته دون أن يقبض علىّ .. خامسًا : يمكن نسخه فى وقت قصير .. سادسًا : يمكن إعادته .. سابعًا : ـ والأهم ـ من الواضح أن فيه دليلاً كارثيًا .. كل هذا سهل لكن نسخه هو التحدى الحقيقى .. لا يوجد فى شركتنا ملف تقل صفحاته عن مائة ، ومعنى هذا أن علىّ أن أقف أمام آلة تصوير المستندات لفترة طويلة معرضًا للانكشاف .. ثم إن

المحامين لا يصورون وإنمـا تفعل ذلك السكرتيرات .. وآلة التصوير معقدة عالية التقنيـة جـاهزة كـى تنحشر فيها الورقة لحظة ضغط الـزر فتكـون الفضيحـة ، دعك من أنها مزودة بعداد يسمح بخروج فاتورة للعميل ..

يجب أن أخرج من الشركة بالملف .. وهذه جريمة ..

على كل حال دخلت قسم العقـارات فى الرابعـة ، وقـد شمرت كمى ، ومعى كومة ملفات كأن لدى عملاً خطيرًا هناك .. كان (تشانس) هناك وبابه موارب بينما صوتـه يدوى عبر الهاتف .. لم تكن هناك كاميرات أمن تراقب من أعلى .. مـن ذا الـذى يفكـر فـى سرقة شـىء مـن قسم العقارات ؟

غادرت فى الخامسة فابتعت شطائر ، واتجهت لمكتبـى الجديد ..

* * *

شركائى كانوا هناك .. وقـد خـرج (موردخـاى) مرحبًا ليرينى مكتبى الجديد .. كان فـى نصـف حجـم هـذا الـذى غادرته ، وهناك خزانة ملفات جوار الجدار .. لم يكـن هنـاك

هاتف .. هناك آلة تصوير مستندات من طراز الثمانينيات العتيق . ليست فيها بهرجة آلات شركتى السابقة ..

ناولنى (موردخاى) حلقة بها ثلاثـة مفـاتيح ، وقـال لى : إن بوسعى أن آتى متى أردت .. لكن .

ـ « كن حذرًا .. أوقف سيارتك أمام الباب بالضبط .. امش لها بسرعة ، ثم أغلق الباب عليك فورًا ! »

لابد أن الخوف بدا فى عينى ، فقال :

ـ « سوف تعتاد هذا .. كن ذكيًّا .. »

فى السادسة والنصف عدت لسيارتى .. لـم يتحـرش بى أحد .. لم أتلق رصاصة ولم تخدش سيارتى .. ربمـا كان بوسعى أن أعيش فى هذا العالم ..

* * *

استغرقت إحدى عشرة دقيقة للعـودة إلـى الشـركة .. لو افترضنا أن نسخ الملفـات يستغرق نصف سـاعة .. إذن سيظل الملف خارج الخزانة ساعة كاملة ..

فى الثامنة مساء عدت لقسم العقارات متظاهرًا بأننى مشغول جدًا .. لم يكن هناك أحد فى مكتب (تشانس) ثم تفقدت كل المكاتب وقرعت الأبواب .. بحثت عن الكاميرات ..

فتحت مكتب (تشانس) .. ووقفت فى الظلام لا أعرف إن كان بوسعى أن أضىء النور أم لا .. لو مر شخص بالبناية فمن العسير أن يحدد الضوء فى أى مكتب .. ثم إن الظلام دامس ، وليس معى كشاف ..

أغلقت الباب وأضأت الأنوار .. بحثت بين الملفات حتى وجدت دستة منها كلها تحمل عنوان (ريفر أوكس) .. (تشانس) وسكرتيرته منظمان ..

بدأت أفتش فى ملف غليظ .. أردت أن أتأكد من أنه الملف المطلوب ..

فجأة سمعت صوت رجل يصيح فى الممر :

ـ « هيه ! »

وثبت داخل جلدى .. ثم جاء صوت رجل آخر وبدأت محادثة .. محادثة عن كرة السلة ..

مشيت للباب بقدمين من مطاط وأطفأت النور .. ثم جلست على أريكة (تشانس) لمدة عشر دقائق .. لو رأونى أخرج من الباب والملف ليس معى فلا شىء ضدى .. إن غدًا يومى الأخير في الشركة على كل حال ، أما لو رأونى والملف معى فهى نهايتى ..

بدأت الأصوات تخفت ، فأغلقت الدرج وأخذت الملف ..

سبع دقائق .. ثمان .. تسع ..

فتحت الباب ونظرت عبر الردهة .. لا أحد .. مشيت خارجًا من المنطقة ، والملف معى وأنا أتظاهر بأننى طبيعى ..

ـ « هيه ! »

سمعت صوتًا من خلفى فاستدرت عبر المنعطف ، وحصلت على لمحة مما يجرى خلفى فرأيت رجلاً يحاول اللحاق بى .. وجدت مكتبًا مفتوحًا فدخلته على الفور ..

كانت مكتبة صغيرة ، فمشيت بين الأرفف حتى وجدت بابًا يقود للناحية الأخرى ..

وجدت مخرجًا ودرجات تهبط لأسفل فرحت أركض .. بلغت الطابق الأرضى بلا معطف .. الطقس بارد بالخارج لدرجة التجمد .. فركضت إلى السيارة ..

* * *

لماذا جريت من ذلك الشخص ؟ هو لم يرنى أغادر مكتب (تشاتس) .. كان بوسعى أن ألبى نداءه وأثرثر معه .. ولو أراد أن يرى الملف لصرفته مازحًا .. ترى هل عرفنى ؟ لماذا نادانى بهذه الطريقة لو عرفنى ؟

على كل حال قدت سيارتى ..

كان من المستحيل على أن أعرف أن هناك عملية تهريب مخدرات قد ضبطتها الشرطة ، وأن شرطيًا أصيب بالرصاص ، وأن سيارة (جاجوار) خاصة بتاجر المخدرات تندفع عبر الشارع الثامن عشر ..

كان الضوء الأخضر يسمح لى بالمرور لكن الفتية الذين أصابوا الشرطى لم يبالوا بقواعد المرور ، وفجأة لمحت الجاجوار كأنها طيف ثم انتفخ كيس الهواء الواقى من الصدمات فى وجهي . حينما استعدت رشدى كان الباب الأيسر يضغط على كتفى ووجوه سود تحدق فى عبر الزجاج المحطم .. سمعت صفارات إنذار ثم غبت عن الوعى ..

فك أحد المسعفين حزام الأمان عني ، وسألنى إن كان بوسعى المشى .

قلت وأنا أجلس على حافة المحفة :

ـ « أنا بخير .. »

وإذ حملونى لسيارة الإسعاف رأيت (الجاجوار) مقلوبة يحيط بها رجال الشرطة والناس .. أخذونى إلى الطوارئ فى مركز (جورج واشنجتون) ، وحقنونى بالمسكنات .. صحوت فى وقت ما من الليل لأجد (كلير) تنام على مقعد جوار الفراش ..

* * *

أربـع عشـر

رحلت (كلير) قبل الفجْر ، وقالت لـى مذكرة لطيفة جوار الفراش إن عليها القيام بالمرور الصباحى ، وإنها ستعود فـى منتصف النهـار .. لقد تكلمت مـع الأطباء ومن المحتمل أننى لن أموت .. هكذا ظهرنا أمام النـاس زوجين متعاطفين متحابين .. لن يتخيل أحـد أننا ننهـى إجراءات الطلاق ..

مرحبًا بك فى شوارع واشنطن الفقيرة ..

الحقيقة : كان تواجدى فى هذا الركن من المدينة بعد الظلام معناه الانتحار ..

ضلوعى تؤلمنى عند النفس وذراعى زرقاء منتفخة ، ورأيت وجهى فى المرآة وقد صارت لـه ملامح جديدة .. لاشىء خطير .. سيزول كل هذا على نهاية الأسبوع ..

جلبت لـى الممرضـة بعـض الأقـراص فرفضتهـا .. لا أريد مسكنات لأننى أريد أن أحتفظ بذهن صاف ..

أجريت بعض الاتصالات فعرفت من سكرتيرة فـى إدارة المرور أن السيارات المحطمـة تنقـل إلـى أرض

خلاء فى طريق (راسكو) فى الشمال الغربى .. هكذا اتصلت بـ (موردخاى) لأسأله عن طريقة العثور على سيارة محطمة .. وعد بأنه سيبحث ويتصل بى ..

عند الظهر جاءت (كلير) فتحدثت مع طبيبى الذى سمح لى بالرحيل ، وسرعان ما كانت توصلنى بسيارتها للبيت حيث أعدت لى حساء طماطم ثم انصرفت عائدة لعملها ..

عرفت مكان سيارتى عن طريق (موردخـاى) فاتجهت إلـى هنـاك بوسـاطة سيارة أجـرة قمـت باستئجارها هاتفيًا .. عرفت السيارة (اللكساس) عندما وقفت خلف السلك الشائك أرمق السيارات المحطمـة المكومـة فوق بعضهـا . لقد أطـار التصـادم جانبهـا الأيسر .. قـال لـى السائق عندما رأى المشهد :

ـ « أنت رجل محظوظ فعلاً »

لكننـا لـم نستطع الدخول .. كـان هنـاك مكتب لكنـه مغلق ، والبوابات مغلقة بجنزير ثقيل .. هكذا طلبت منه الذهاب إلى شركة لتأجير السيارات .

عدت لدارى لأتنـاول آخر وجبة لـى مـع (كلير) باعتبارنا زوجًا وزوجة .. قدمت لى الطعام ثم سألتنى :

ـ « هل تعرف من يدعى (هكتور بالما) ؟ »

ابتلعت الطعام بصعوبة ، ثم سألتها :

ـ « ما شأنه ؟ »

ـ « اتصل بك عدة مرات .. من هو ؟ »

ـ « موظف فى الشركة كان علىَّ أن أعاونه .. إنه فى ورطة »

ـ « هذا أكيد .. إنه يريد لقاءك فى بار يدعى (ناثان) فى تقاطع شارعى (إس) و(إم) التاسعة مساء .. »

ـ « ولماذا بار ؟ »

ـ « لم يقل .. هل هذا مريب ؟ »

تلاشت شهيتى لكنى واصلت الأكل كى أبدو طبيعيًا أمامها ..

★ ★ ★

مشيت فى شارع (إم) من دون سيارتى لأن إيجاد مكان لإيقاف سيارة مستحيل مساء الجمعة ، دعك من حاجتى إلى تحريك عضلاتى ..

لا يمكن أن يعنى هذا اللقاء إلا المتاعب .. فكرت فى أكاذيب أبرر بها تصرفاتى وأكاذيب أبرر بها الأكاذيب .. من الممكن أن يكون (هكتور) يحمل أجهزة تنصت الآن .. سوف أصغى ولا أتكلم ..

كان البار نصف خال وقد جئت قبل موعدى بعشر دقائق ، لكنه كان هناك ينتظرنى .. وثب وصافحنى فى حرارة كأنه لم يرنى من قبل .. ودعانى إلى الجلوس ..

ـ « ماذا حدث لوجهك ؟ »

ـ « قبّلت كيس هواء .. »

ـ « نعم .. سمعت عن الحادث .. يبدو أن الآخر قد مات .. تاجر مخدرات هو . أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. »

ولاحظت أنه يتحكم فى المحادثة تحكمًا كاملاً وأن ردوده تأتى أسرع من أسئلتى .. جاء الساقى فسألنى عما أرغب فى شربه فطلبت قهوة سادة .. هنا شعرت بقدمه تركل قدمى تحت المنضدة .. وعندما وقف الساقى بيننا ليحجبنا عن الرؤية رأيت (هكتور) يرفع سبابته ويشير إلى صدره ..

إذن هو يحمل جهاز تنصت وهم يراقبونه كذلك .. هذا يفسر تحيته الحارة كأننا لم نلتق قط ..

قال لى :

ـ « أنا كاتب فى قسم العقارات .. لابد أنك قابلت (برادن تشانس) محامينا .. لقد التقينا مرة عابرة عندما زرت مكتبه منذ أسبوع .. »

ـ « هذا صحيح .. »

بما أننى مراقب فمن الخير ألا أتكلم إلا بمقدار .. ثم أضفت :

ـ « فى الحقيقة أذكر الموقف لكن لا أذكر وجهك .. »

غمرت وجهه ابتسامة خفيفة ولمست قدمه قدمى .. نحن نرقص على اللحن ذاته ..

ـ « سبب لقائنا هو أن هناك ملفًا فقد من مكتب (تشانس) .. »

ـ « وهل أنا المتهم ؟ »

ـ « لا .. لكنهم يشتبهون بك .. إنه نفس الملف الذى طلبته من (تشانس) وكدت تتشاجر بسببه .. الشركة تحقق مع كل شخص يمكن أن يخطر ببالها .. »

ـ « إذن لا علاقة لى بالأمر ، فلا يمكن أن أسرق ملفًا من زميل »

ـ « هل تقبل أن تخضع لجهاز كشف الكذب ؟ »

طبعًا .. قلتها وأنا أعرف أنه لا توجد قوة على الأرض ترغمنى على الخضوع لجهاز كشف الكذب ..

ـ « هم كذلك يأخذون البصمات .. »

لم يخطر لى هذا .. بصماتى على مفتاح النور والخزانة و .. كلَ شىء .. على كل حال قررت أن أكون عنيفًا ، لذا قلت :

ـ « لا أحب طريقتك .. لو كنت تتهمنى بشىء فلتفعل .. اذهب إلى رجال الشرطة وأخبرهم بكل شىء .. هذه جريمة سرقة .. إذن من واجبك أن تقبض على السارق .. »

قال :

ـ « هناك كذلك ملف وجدناه فى مكتبك .. ثمة شخص قال لك إنه أرسل لك مفتاحين لخزانة (تشانس) ! »

كانت آثارى تتسع .. لقد تدربت كى أكون محاميًا لا لصًا .. ويبدو أن الموضوع أعقد مما تصورت .. لقد وصلتنى الرسالة على كل حال .. الشركة تريد الملف .. بما فيه .. وهى تعرف يقينًا أننى من أخذه ..

نهضت معلنًا نيتى فى الانصراف فسألنى :

ـ « متى تجتاز اختبار كشف الكذب ؟ »

ـ « سوف أتصل بك »

* * *

خمس عشر

عن طريق علاقات (موردخاى) وشرطى يدعى (بولى) تمكنت أخيرًا من الوصول إلى سيارتى فى تلك الساحة التى ألقوها فيها .. دخلت إلى الحطام وبحثت عن الملف .. لم أجده للحظة مرعبة ، ثم مددت يدى تحت المقعد الأمامى فوجدته .. وضعته تحت إبطى كأنه من ذهب ..

قال لى الشرطى الذى يحرس السيارات المحطمة ، قال :

ـ « تعال معى .. »

وفى الداخل دوّن مواصفات المظروف والمكتوب عليه بدقة .. لديه الآن كل ما يثبت أننى أخذت مظروفًا بهذه المواصفات من حطام سيارتى .. آثارى تزداد اتساعًا ..

لم يكن (موردخاى) يعرف عن الملف إلا أنه مهم ..

كنت متلهفًا على تصفح الملف لكنى قاومت ذلك حتى أصير وحدى فى شقتى الجديدة ..

* * *

كانت شركة (ريفرأوكس) تبتاع كل العقارات الرخيصة فى المنطقة المتهالكة من المدينة .. وكانت شركة TAG شركة مريبة غير مسجلة بشكل قانوني ، يديرها من يدعى (تلهان جنتري) الذى يصفه الملف بأنه قواد سابق قبض عليه مرتين من قبل .. أمثاله كثيرون فى هذه المدينة .. بعد اعتزاله الجريمة قرر أن يتاجر فى العقارات والسيارات المستعملة . بدأ يبتاع العقارات المهجورة ويؤجرها .. الملفات تظهر أربعة عشر عقارًا ملك هذا الرجل ..

هنا يلتقى طريق الرجل بشركة (ريفر أوكس) حينما احتاجت هيئة البريد لمساحات إضافية .. وقد أسندت مهمة الحصول على أرض إلى شركة (ريفر أوكس) .. وهناك عقد مرفق بمليون دولار ونصف مضمونة الدفع سنويًا لمدة ٢٠ عامًا .. بشرط توقيع العقد النهائى قبل ١ مارس وإلا اعتبر الاتفاق ملغيًا ..

على الفور انطلقت شركة (ريفر أوكس) للعمل .. ابتاعت أربع ملكيات فى المنطقة قرب المستودع الذى يعيش فيه أولئك اللاجئون . لقد اقترب الأول من مارس فلم يعد باقيًا إلا أسبوع ..

الآن أفهم لماذا اكتشف (تشانس) اختفاء الملف بهذه السرعة .. لقد كان يتعامل معه يومًا بيوم ..

اشترت TAG المستودع فى يوليو الماضى بمبلغ غير منكور فى الأوراق .. ثم اشترته منها شركة (ريفر أوكس) بمائتى ألف دولار قبل تنفيذ حكم الطرد بأربعة أيام ..

كنت قد فرشت الأوراق على الأرض ورحت أدرس كل ورقة ، وأقوم بتدوين ما فيها فى مذكرة صغيرة توطئة لإعادتها إلى موضعها الدقيق من الملف .. كل شيء مرتب ومفهرس بدقة كما علمونا فى الشركة .. حيث كل وثيقة لا يمكن العثور عليها فى ثلاثين ثانية لا قيمة لها ..

بمساعدة رجل شرطة و(فتوات) من شركة خاصة توجه (هكتور بالما) إلى المستودع لإخلائه ممن فيه .. كان هذا يحتاج إلى شجاعة غير عادية ، وكما كتب (هكتور) : « كانت الأم تنام على الأرض مع أطفالها الأربعة ومنهم رضيع .. قاتلت رجل الشرطة وفى النهاية استطعنا إخراجها .. »

كانت قائمة المطرودين حوالى سبعة عشر باستثناء الأطفال .. نفس القائمة التى وضعها ذلك المجهول على مكتبى .. لم تكن هناك إخطارات بالطرد ؛ لأن الشركة اعتبرت هؤلاء متسللين أو مقيمين بوضع اليد ، وواضعو اليد لا حقوق لهم ..

هذا الملف مسروق .. والسارق أحمق لأن الأدلة ضده تتكوم فى هذه اللحظة .. لقد أخذوا بصماتى عندما التحقت بالشركة ولن يكون صعبًا مضاهاتها بالبصمات فى خزانة (تشانس) .. بل أنا أعرف أن هذا تم ..

ترى هل حصلوا على أمر باعتقالى ؟

* * *

ست عشر

لم يكن مكتبى الجديد يشبه فى شىء مكتبى فى شركة (سوينى) .. المكتب نفسه عبارة عن منضدة صغيرة بالتأكيد ابتاعوها من مدرسة قديمة .. لها ثلاثة أدراج لكنها تفتح بصعوبة .. المقعد من الطراز الذى يستأجرونه للحفلات ، ولا يمت بصلة لمقعدى القديم الجلدى الدوار المريح .. جدران الغرفة بحاجة إلى طلاء ، والتدفئة سيئة جدًا ..

دوت دقة على الباب أثارت هلعي ، فتساءلت عما إذا كانت عصابات الشارع قد لاحقتنى إلى هنا .. نظرت عبر الزجاج المصنفر للباب فرأيت ملامح مألوفة .. إنه (بارى نوتسو) صديقى القديم .. كان يرتجف ويتوق للدخول إلى الأمان بالداخل ..

فتحت له الباب ، فدخل وهو يصيح :

- « يا له من وكر ! »

يبدو أن الأمر بدا له مسليًا .. نزع قفازيه ومشى إلى حيث أريكة (صوفيا) .. قلت له :

- « نحن نبقى مصاريفنا منخفضة كى نأخذ معنا كل المال للبيت . »

قال وهو مستمتع بكل هذا :

- « أنت جننت بلا شك .. هل بدأت تسمع أصواتًا ؟ »

- « هل جئت هنا كى تقول لى هذا الكلام ؟ »

- « لقد اتصلت بـ (كلير) وكلمتنى عن الطلاق .. ثم ماذا حدث لوجهك ؟ »

قاطعته سائلاً إن كان يرغب فى قهوة .. وددت ألا يصحبنى إلى المطبخ لأن هذا مشهد لا يجب أن يراه .. وجدت قدحًا فغسلته وملأته بالقهوة وبسرعة عدت له .. كان يتفحص الحجرة ثم قال لي :

- « هل هذا ما كنت تحلم به فى مدرسة القانون ؟ »

وفجأة انتهى المزاح .. نظر لى فى جدية وبرغم قسوة الفكرة فإننى تساءلت عما إذا كان يحمل جهاز تنصت هو الآخر .. بوسعهم هذا وهو لن يتطوع لهذه المهمة لكنهم قادرون على إجباره .. لقد صرت العدو الآن ..

- « هناك ملف مهم مفقود يا (مايكل) والجميع يشير نحوك .. »

- « هل أرسلتك الشركة ؟ »

- « طبعًا لا .. »

صدقته .. فنحن صديقان منذ سبع سنوات برغم أننا كنا أكثر انشغالاً من أن نمارس الصداقة فعلاً ..

واصل الكلام :

- « الملف يتعلق بـ (مستر) .. أنت قابلت (تشانس) وطلبت الملف .. ثم شوهدت تتسكع قرب مكتبه .. بصماتك فى كل مكان فى الغرفة والخزانة .. أنت أخذت الملف يا (مايكل) .. »

- « ماذا تعرفه عن هذا الملف ؟ »

- « لا أعرف شيئًا إلا أنه يتعلق بـ (مستر) وأنك أخذته .. كلاب الشركة الكبرى تبحث عنك ، وقد حرموا علينا الاتصال بك .. أنا هنا برغم أوامرهم .. »

- « لن أشى بك على كل حال . »

ـ « اسمع يا (مايكل) .. أنا متأكد من أن كل شىء يمكن إصلاحه .. أعد الملف وسوف أقابل مديرى الشركة وأجعلهم يصفحون فينسون .. ثم آخذ إجازة معك لمدة أسبوعين نلعب فيهما التنس ونعود كأن شيئًا لم يكن . »

ـ « هل أنت متأكد من أنهم لم يرسلوك لتقول لى هذا ؟ »

ـ « لا وأقسم على هذا .. »

ـ « إذن هذه الفكرة لا تصلح .. هناك فارق بين أن تكون محاميًا وأن تكون بائعة هوى تتقاضى أجرها بالساعة .. لقد دخلنا هذه المهنة لأننا حسبنا القانون قيمة عظمى .. يمكنك محاربة فساد المجتمع كله بالقانون .. كنا مثاليين وقتها .. فلماذا لا نعود كما كنا ؟ »

ـ « أقساط المسكن ! »

ـ « لم أطالب بتجنيدك معى .. من حسن الحظ أننى بلا أطفال .. لدى ترف أن أكون بطلاً بعض الوقت .. »

راح ينظر إلى جهاز التدفئة وهو يأمل أن يبعث بعض الحرارة ، ثم قال :

ـ « لا يمكنك الاحتفاظ بهذا الملف يا (مايكل) .. إنهم مجانين كالجحيم .. من حق العميل أن يبقى ملفه فى السر ويعامل بسرية تامة ، ومعنى هذا أنهم سيقاضونك .. »

ـ « لدى الشركة ما تخسره أكثر منى .. إن هذا الملف خطر عليهم »

نظر لى فى دهشة فهو فعلاً لا يعرف محتوى الملف ، ثم قال :

ـ « حتى لو كان هذا صحيحًا فليس بوسعك استعمال ملف مسروق فى المحكمة .. ربما أستطيع أن أرتب لك لقاء فى غرفة موصدة مع (آرثر) .. نوعًا من الهدنة .. »

ـ « فات وقت ذلك .. هناك أناس تجمدوا من البرد فى الطرقات .. »

ثم قررت تغيير موضوع الحديث فدعوته إلى جولة فى المكتب ..

وعندما افترقنا بعد قليل طلب منى أن أتصل به من حين لآخر ، فأكدت له ذلك ..

* * *

سبع عشر

فى الصباح ذهبت مع (موردخاى) إلى الملجأ المدعو (بيت السامري) ، حيث قابلت طوفانًا من المشردين الذين يريدون رأيى القانونى .. أغلبهم قال آسفًا إنه لا يستطيع أن يدفع لى .. معظم القضايا تتعلق بتوقف الإعانات الحكومية أو بونات التغذية أو موظفة تركت العمل وأرسلت لها شركتها شيكًا لم يصلها لأنها بلا عنوان .. رجل أدمنت زوجته المخدرات فاحترفت البغاء وقادته إلى الإفلاس .. قصص جعلتنى أود تقبيل قدم (كلير) الآن ..

لم أتصور هذا الكم من العمل باعتبارى محامى شوارع ، وكنت قد ارتديت ثيابًا غير مهندمة وكففت عن حلق لحيتى مما راق لـ (موردخاى) .. أنا الآن محامى شوارع فلا يهم مظهرى .. ومن حسن حظى أننى اعتدت إدمان العمل لذا لم يشكل لى هذا الكم الكبير من القضايا مشكلة ..

عند الظهر عدت إلى مكتب (موردخاى) . وجدت لى (صوفيا) جهاز هاتف يعمل .. كان تحت كومة من

الملفات ، فقمت بتوصيله وكان أول ما فعلته أن اتصلت بشركة (سوينى) طالبًا الاتصال بـ (هكتور بالما) .. أبقتنى السكرتيرة أنتظر على السماعة ، ثم جاء صوت خشن يقول :

- « أنا (برادن تشانس) .. هل لى أن أساعدك ؟ »

غيرت صوتى بسرعة وتمالكت نفسى وقلت :

- « أنا صديق قديم لـ (هكتور بالما) من أيام المدرسة .. هل لى أن أكلمه ؟ »

قال فى بساطة :

- « (هكتور بالما) لم يعد يعمل هنا »

وضعت السماعة ورأسى يدور .. فكرت أن أتصل بـ (بولى) سكرتيرتى السابقة لأتأكد من صحة هذا الخبر .. ربما لو طلبت (بارى) أو (رودلف) .. ثم تذكرت أن هؤلاء جميعًا لم يعودوا أصدقائى .. لقد رحلت .. لقد صرت العدو ..

لم أعتقد أن الشركة غبية بحيث تفصل (بالما) .. أعتقد أنها نقلته إلى فرع آخر بعيد براتب أعلى .. هكذا تضمن صمته وتتخلص منه فى الوقت ذاته ..

لم أكن متلهفًا على العودة لدارى الجديدة بعد انتهاء العمل .. غرفة نوم بلا فراش .. مطبخ بلا ثلاجة .. تلفزيون بلا كابل .. إن المقولة القديمة التى تقول إن القانون حبيبة غيور صادقة معى جدًا .. فلم يعد القانون إلا كل ما أملكه فى الحياة ..

انصرفت (صوفيا) مبكرًا كعادتها لأنها تعيش فى منطقة خطرة وهى تفضل أن تغلق الأبواب عليها ليلا .. وقد نصحنى (موردخاى) بألا أتأخر .. أوقف السيارة قريبًا .. يجب أن نكون اثنين عند الانصراف .. امش بسرعة .. راقب كل شىء ..

ـ « نحن سعداء بوجودك .. كنا بحاجة إلى رجل أبيض wasp هنا .. »

ـ « إذن لى الشرف أن أكون رمزًا .. »

* * *

انتظر رجال الشرطة حتى الواحدة صباحًا ثم هجموا كرجال الكوماندوز ، ودقوا الباب بعنف .. ولم تجد (كلير) وقتًا لاستجماع أفكارها .. وضعت شيئًا على منامتها بينما هم يوشكون على تهشيم الباب ..

ـ « شرطة !! »

فتحت الباب وتراجعت فى ذعر بينما اقتحمه أربعة رجال ، اثنان منهم بالزى الرسمى .. وكانوا يتصرفون كأن حياة إنسان فى خطر .. وصاح بها أحدهم :

ـ « تراجعى ! »

وكانت عاجزة عن الكلام .. قال قائدهم الملازم (جاسكو) وهو يخرج أوراقًا من جيبه :

ـ « هل أنت (كلير بروك) ؟ »

وهو يمثل (كولومبو) بطريق سيئة .. فهزت رأسها أن نعم ..

ـ « أين (مايكل بروك) ؟ »

ـ « لم يعد يعيش هنا .. »

كان من المستحيل أن يصدق الرجل هذا ؛ لذا أخرج ورقة وقال :

ـ « معى إذن تفتيش من القاضى (كيزنر) استخرجه الساعة الخامسة بعد الظهر .. »

ورفع الأوراق لتراها ، كأنها يمكن أن تستوعب ما فيها فى ساعة كهذه ..

- « عم تبحثون ؟ »

- « هذا فى الأوراق .. »

واندفع الرجال يفتشون الشقة ..

كنت نائما على الأرض فى شقتى فى ذلك الوقت .. منذ جئت هذه الشقة آكل قليلا وأنام أقل .. لكنى أحمد الله على أننى على الأقل أملك جدرانا وسقفا وتدفئة ومهنة وأعرف أننى سأجد طعام غد .. هذا يختلف عن البؤساء الذين أعمل لهم .

دق جرس الهاتف المحمول فرفعته لأسمع (كلير) تقول همسًا :

- « (مايكل) رجال الشرطة يفتشون الدار . »

- « ماذا ؟ »

- « معهم إذن تفتيش .. ويقولون إنهم يبحثون عن ملف .. »

- « سأكون عندك خلال عشر دقائق .. »

هكذا اندفعت إلى الشقة كأنى تحت الاستحواذ ، وكان (جاسكو) أول من قابلت .. فصحت :

- « أنا (مايكل بروك) .. من أنتم بحق الجحيم ؟ أريد أن أرى أوراقكم .. »

أخرج الشارة من جيبه ورفعها لأتمكن من رؤيتها .. قلت فى تحد :

- « (لارى جاسكو) .. أنت أول من سأرفع عليه قضية فى العاشرة صباح غد .. من معك ؟ »

قالت (كلير) :

- « معه ثلاثة وهم فى غرفة النوم الآن .. »

دخلت غرفة النوم لأجد شرطيًا على أربع ينظر تحت الفراش فصحت فيه :

- « أرنى أوراقك أيها الأحمق .. »

أخرج شارته فنظرت فيها ، وقلت :

- « (داريل كلارك) .. المتهم الثانى .. »

قال فى برود :

- « ليس بوسعك مقاضاتى .. »

ـ « جربنى أيها الصبى الكبير .. سوف أطلب منك تعويضًا فى المحكمة بمليون دولار للتفتيش غير القانونى ، وسوف أكسبها .. عندها سأجعلك تشهر إفلاسك .. »

وطلبت من (كلير) أن تحضر كاميرا الفيديو لتصور المشهد ، ثم قلتُ لهم :

ـ « سوف تحاكمون وتطردون من الخدمة ، غالبًا بلا معاش .. التفتيش غير قانونى .. ومن أعطاكم الإذن سيُحاكم .. هى أخبرتكم أننى لا أعيش هنا وبرغم هذا واصلتم التفتيش .. عند هذه النقطة صار ما تقومون به غير قانونى .. كان عليكم التوقف لكنكم لم تقاوموا لذة العبث بالممتلكات الشخصية للآخرين .. »

تظاهروا باللامبالاة ، لكنهم كانوا خائفين .. أنا محام فلابد أننى أعرف ما أتكلم عنه .. لم أكن كذلك لكنى بدوت مقنعًا .. كنت أمشى فوق جليد قانونى رفيع للغاية ..

سألنى (جاسكو) :

ـ « أين الملف ؟ »

ـ « الملف ليس هنا لأنى لا أعيش هنا ولهذا سوف أقاضيكم .. والآن لِمَ لا تنصرفون ؟ »

ـ « طيلة الوقت يقاضوننا فلا مشكلة هناك »

وكانت (كلير) تصورهم فلم يجسروا على قول ما هو أكثر .. وسرعان ما كانوا يتجهون إلى الباب .. وغمغم أحدهم بصوت خفيض بعبارات سباب ضد المحامين الذين يتدخلون فى كل شىء ..

وقفت أقرأ إذن التفتيش بينما (كلير) ترشف القهوة وقد استعادت برودها .. لن تظهر أمامى بمظهر الضعف أبدًا ، وأبدًا لن تظهر لى أنها بحاجة إلىَّ ..

ـ « هل ستقاضيهم فعلاً ؟ »

ـ « لا .. لكنهم لن يعودوا ثانية .. »

ـ « وما موضوع هذا الملف ؟ »

ـ « قصة طويلة هى .. »

كنت أعرف أنها غير مهتمة .. فقط تريد الاطمئنان إلى أنهم لن يعودوا .. سألتها :

- « هل أخبرتهم بمكان إقامتى ؟ »

- « أنا لا أعرف مكان إقامتك ! »

وانصرفت بلا كلمة أخرى أو أية لمسة توحى بالاهتمام .. وكان هذا ما تريده بالضبط ..

* * *

ثمانى عشر

فى الصباح أخبرت (موردخاى) بالقصة كلها .. موضوع الملف وكل هذه التفاصيل التى يسمعها لأول مرة .. تمنى أن يصفنى بالجحش لكن علاقتى به لم تبلغ هذا الحد ..

قلت له إننى لم أجد حتى هذه اللحظة السبب الذى يجعل الملف مهمًا لهذه الدرجة .. لكنى كونت نظرية معقولة هى أن شركتى السابقة طردت هؤلاء المشردين من المستودع برغم أنهم يدفعون إيجارًا قدره مائة دولار فى الشهر .. كانوا مستأجرين لهم كافة حقوق المستأجر القانونية ، لكنها عاملتهم كواضعى يد .. والسبب هو أنه لا وقت للإجراءات القانونية لأن الصفقة توشك على الضياع من (ريفر أوكس) .. هناك ورقة معينة تثبت أن (تشانس) عرف أن هؤلاء القوم مستأجرون وليسوا متسللين للعقار ، لكنه أخفاها .. ولم يضعها فى الملف .. السبب : هو حاجة الشركة الماسة إلى الاستيلاء على المستودع قبل فوات الأوان .

قال (موردخاى) :

- « المالك السابق للعقار - ذلك البلطجى - يعطى أماكن لهؤلاء البؤساء ويأخذ منهم إيجارًا ، لكنه لا يبلغ الحكومة بشىء عنهم كى لا يلتزم بشىء .. هكذا تعاملهم الحكومة كمتسللين .. هذا يحدث طيلة الوقت .. »

كان من رأيه أن علينا الآن أن نضع خطة محكمة .. لو استطعنا أن نجر (ريفر أوكس) وشركتى السابقة للمحكمة ، لكانت المحاكمة صاخبة ، وسوف تعيد اهتمام الإعلام بالمشردين ..

عندما صرت وحدى اتصلت بصديقى (بارى نوتسو) وطلبت منه أن يقابلنى عند تقاطع شارعى (ك) و (كونكتيكات) ..

- « سأكون عندك بعد ساعة .. »

- « بل الآن أو انس الأمر .. »

لم أرد أن أمنح هؤلاء الصبية وقتًا لرسم خطة .. لا أريد منحهم وقتًا لدس أجهزة تنصت كذلك ..

- « أنا فى مقهى (بنجلر) .. سأنتظرك .. وتعال وحدك .. »

- « أنت تشاهد الكثير من الأفلام مؤخرًا .. »

بعد عشر دقائق كنا نجلس فى ذلك المقهى الصغير المزدحم ، نحتسى القهوة الساخنة ونراقب زحام المرور .. سألته :

- « لماذا طلب التفتيش ؟ »

- « إنه ملفنا ونحن نريد استرجاعه .. هذا بسيط .. أين تعيش الآن ؟ »

ضحكت ساخرًا بما معناه (ما هذا الذكاء ؟) .. ثم قلت :

- « أمر الاعتقال يصدر بعد أمر التفتيش .. هل هذا هو السيناريو المتوقع ؟ »

قال :

- « اسمع يا (مايكل) .. فلنبدأ من منطلق أنك مخطئ .. أنت أخذت شيئًا ليس لك وهذه سرقة .. الأمر بسيط كما ترى .. أنا صديقك لكنى ما زلت أعمل لدى الشركة فلا تتوقع أن أساعدك .. أنت من وضعنا فى هذا الموقف لا أنا .. هذه ليست لعبة يا (مايكل) ومن الممكن أن تؤذى نفسك .. »

ـ « (تشانس) أيضًا قد يُؤذى .. هذا الملف يثبت أنه ارتكب خطأ مهنيًا جسيمًا .. ما أطلبه هو هدنة لفترة بلا أوامر باعتقالى أو تفتيشى .. »

ـ « وماذا تقدم فى المقابل ؟ »

ـ « ألا أضايق الشركة بمحتوى الملف .. »

ابتلع باقى القهوة ، وقال :

ـ « لست مؤهلاً لإجراء صفقات .. أستطيع فقط أن أنقل رسالتك هذه .. أنت تتوهم أن الشركة تريد الكلام معك .. بالعكس .. هم غاضبون جدًا ولا يريدون أى تعامل معك »

قلت وأنا أغادر المقهى :

ـ « هدنة لمدة أسبوع .. »

* * *

كانت المرأة الشابة جالسة جوار باب الشركة عندما وصلت هناك صبيحة الأربعاء .. الحرارة فى درجة التجمد .. ما إن رأتنى حتى وثبت وهتفت :

ـ « مرحبًا .. هل أنت محام ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « لمن هم مثلى ؟ »

ـ « بالتأكيد »

وفتحت الباب وسمحت لها بالدخول .. أعددت قهوة ووجدت بعض (الدونات) فى المطبخ فقدمته لها ..

ـ « ما اسمك ؟ »

ـ « (روبى) »

ـ « وأين تعيشين يا (روبى) ؟ »

ـ « هنا وهناك »

كانت تلبس ثيابًا رخيصة .. بين الثلاثين والأربعين مخبولة نوعًا ونحيلة جدًا ..

ـ « كنت أعيش فى مأوى ثم طردت .. وجدت لنفسى سيارة .. »

ـ « هل عندك سيارة ؟ »

- « لا أقودها .. أنام فى المقعد الخلفى .. »

قدمت لها القهوة ودعوتها إلى المكتب .. جلست منحنية على كوب القهوة كأنه آخر شىء دافئ تلمسه فى حياتها .. ثم بدأت تقول :

- « إنه ابنى .. (تيرانس) .. إنه فى السادسة عشر .. لقد أخذوه منى .. رجال الملجأ .. »

منذ أعوام كان (تيرانس) فى العاشرة ، وكانا يعيشان فى شقة صغيرة .. قبض عليها لبيع المخدرات وسجنت أربعة أشهر .. ذهب (تيرانس) ليعيش مع أختها .. ثم خرجت من السجن ليعيشا فى الشارع ويناما فى السيارات .. بشكل ما استطاعت أن تبقيه فى المدرسة .. باعت المخدرات وباعت جسدها .. فعلت كل شىء لتبقيه شبعان وفى ثياب معقولة وفى المدرسة .. فى لحظة يأس ذهبت لأسرة عملت عندها منذ زمن .. آل (رولاند) .. قالت إنها ستدفع خمسين دولارًا فى الشهر لو سمحا لـ (تيرانس) بالحياة عندهما .. وافق الزوجان بعد تردد وسمحا لها بزيارته ساعة مساء كل يوم .. كانا أناسًا طيبين .. صار ابنها نظيفًا سليم الجسد وسرها هذا .. إلى أن تم اعتقالها بتهمة الدعارة هذه المرة ..

عندما خرجت كانت حاملاً .. عندما أنجبته أخذت الحكومة الرضيع لأن أمه مدمنة مخدرات .. ثم وجدت أن آل (رولاند) ضدها .. (تيرانس) ضدها .. ثم جاءها رجل يحمل أوراقًا وقال إن المدينة هى التى ستتولى أمر (تيرانس) .. سوف يتبناه آل (رولاند) فقد قضى معهما ثلاث سنوات ..

كانت تبكى .. أريد أن أراه فقد افتقدته جدًا ..

أستطيع أن أتصور (تيرانس) بصحة جيدة دافئًا يتناول الإفطار على المائدة ويسمع دروس الإسبانية .. بينما عميلتى شبه مجنونة تعيش فى الجحيم .. وعلىّ أن أسعى لجمعهما من جديد ..

قلت لها :

- « لن ترى (تيرانس) إلى أن تشفى من تأثير المخدرات .. يجب أن تذهبى إلى مصحة .. »

شد ما أجهل كل شىء عن المخدرات ! من أين تحصل عليها ؟ كم جرعة ؟ كم من الوقت تحتاج إلى أن تشفى من عادة قاتلة كهذه ؟

هنا سمعت (صوفيا) تصرخ فى الخارج ..

خرجت لأرى ما هنالك ، فوجدت الملازم (جاسكو) قد عاد .. هذه المرة كان معه خمسة رجال شرطة .. كان (موردخاى) هناك ، وهو رجل لا يستطيع أن يخفض صوته أو يكف عن الضوضاء .. وسمعته يقول :

- « ماذا بحق الجحيم ؟ »

نظر لى (جاسكو) ، وقال فى سخرية :

- « لم ترفع علينا قضية كما هددت .. وكل هذا الكلام الكبير .. نحن هنا لنفتش .. هات الشىء الذى عندك وسوف ننهى هذا الإزعاج »

قلت :

- « الملف ليس هنا .. أنت تضيع وقتك »

- « لكن من واجبنا أن نضيعه »

طلبت من (روبى) أن ترحل ، واختليت بـ (موردخاى) فى مكتبه .. كنت محرجًا لأننى تسببت فى مجىء الشرطة إلى هنا .. فسألنى :

- « هل معك نسخة من هذا الملف ؟ لم لا تعطيهم الأصل ؟ »

- « لا أستطيع .. هذا اعتراف منى بالسرقة .. ثم إنهم يعرفون يقينا أننى نسخته . »

كان الجو يزداد توترًا بالخارج .. (صوفيا) تصرخ فى رجال الشرطة ، و(جاسكو) يصرخ فيها .. الأمر يتجاوز الكلمات ليقترب جدًا من حدود الاعتداء الجسدى .. رجال الشرطة فى حيرة لأن تفتيش مكتب محاماة يختلف عن تفتيش بار ملىء بالسكارى ..

قال (موردخاى) لرجال الشرطة :

- « لنتفق .. أولاً : سوف تبحثون عن ملفكم لكننا لن نفتح أى ملف لأن هذا تعد على أسرار العملاء .. »

وافق (جاسكو) فأخذتهم إلى مكتبى ورحت أخرج ملفًا تلو آخر من الدرج ، وأضعه تحت أنف (جاسكو) .. فى هذه اللحظة اتجه (موردخاى) للهاتف وأجرى مكالمة ثم قال لـ (جاسكو) بلهجة انتصار :

- « مكالمة لك .. هذا هو القاضى الذى أعطاك إذن التفتيش .. »

تناول (جاسكو) السماعة فى تردد كأن صاحبها مجذوم .. وأصغى قليلاً ثم طلب من رجاله إنهاء التفتيش .. تباطأ الرجال فى المغادرة .. لكنهم رحلوا فى النهاية ..

واعتذرت لـ (موردخاى) و(صوفيا) عن كل هذه الفوضى ، ثم اعتكفت فى مكتبى ..

* * *

تسع عشر

قهوة من جديد مع (روبى) .. كانت بانتظارى عند الباب وعجبت لأنها منتعشة بهذا الشكل .. كيف يكون المرء منتعشًا بعد نوم عدة ساعات فى المقعد الخلفى لسيارة مهجورة ؟

- « هل ما زال عندك بعض الدونات ؟ »

- « سأرى ذلك .. »

لقد صارت عادة .. ودخلت المطبخ فأعددت القهوة ، ولم أجد سوى بعض الدونات الذى صار صلبًا لكن لم يكن هناك غيره . كتبت أذكر نفسى بشراء بعضه لو جاءت (روبى) غدًا .. وكنت أعرف أنها ستفعل ..

سألتها :

- « هل (عملت دماغ) ليلة أمس ؟ »

واندهشت لأننى أسأل هذه الأسئلة وبهذه اللغة ، لكنها هزت رأسها ، وقالت :

- « نعم .. كل ليلة أفعل ذلك .. »

لم يكن فى نيتى أن ألومها ، فأنا لم أفعل بعد أى شىء يساعدها ..

أخذتها بسيارتى إلى مركز (ناعومي) للنساء ، وهى بناية من أربعة طوابق فى الشارع العاشر .. يفتحونه فى السابعة صباحًا ويقدم الحمامات والطعام والثياب للنسوة اللاتى لا بيت لهن .. عرفت أن (روبى) ممن يترددن على المركز ، وقد رحبت بها صديقاتها هناك .

تكلمت مع المديرة ، وهى شابة جذابة نحيلة تدعى (ميجان) .. يجب أن تتخلص (روبى) من المخدرات قبل أى شىء .. نصف النسوة هناك مختلات عقليًّا وأكثرهن مدمنات .. ثلث الموجودات مصابات بالإيدز ، لكن (روبى) على قدر علم المديرة لم تكن مصابة بمرض معد ..

وعندما رحلت كانت النسوة محتشدات فى المدخل يغنين بصوت عال ..

* * *

قرعت باب آل (بالما) الذى عرفته من دليل الهاتف ، فجاء صوت امرأة يسأل عمن بالباب .. كنت قد سمعت خطتى عدة مرات طيلة الطريق إلى (بتيسدا) لكن لم أقتنع بأننى أستطيع أن أكون مقنعًا ..

قلت :

ـ « جئت أبحث عن (هكتور بالما) .. »

ـ « لم تريده ؟ »

ـ « أنا مدين له ببعض المال ؛ لذا جئت أرده له »

لو أننى كنت آخذ المال لصار الجيران عدوانيين بالطبيعة .. هذه حيلة لا بأس بها .. لكن المرأة قالت :

ـ « لقد رحل من هنا . »

ـ « أعرف أنه رحل .. لكن هل تعرفين إلى أين ؟ »

ـ « لا .. »

بدا لى أن الإجابة هى (نعم) لكنها كانت قد غابت فى ظلال شقتها وأوصدت الباب .. قرعت الجرس مرتين لكن لا إجابة .. درت حول البناية وقرعت جرسًا

فى الجهة الأخرى ، ففتح لى الباب رجل فى عمرى لوث (المايونيز) جانبى فمه وسألنى عما أريد .. إنها الثامنة والظلام قد هبط ، وأنا أضايقه فى وقت العشاء .. كررت قصة (بوب ستيفنس) .. لكنه قال إنه لا يعرفه ..

- « وهل زوجتك تعرف زوجته ؟ »

- « لا .. »

استدرت مبتعدًا لأقابل رجل أمن يحمل هراوة ، ويدق بها على راحة يده كما يفعل رجال الشرطة فى السينما .. سألنى عما أريد ، فقلت له :

- « أبحث عن شخص ما .. وأبعد هذا الشىء عنى .. »

- « تلقينا شكوى من الجيران بأن هناك متسللا فى المنطقة .. يجب أن تبتعد .. »

هكذا تركته ورحلت ..

لم أكن متحمسًا للعودة إلى شقتى الجديدة .. إن اسمى على أجهزة الكمبيوتر فى مكان ما ، ولن يتأخر

رجال الشرطة إلى أن يجدوا بيتى الجديد .. أعرف أنهم سينفذون غارتهم ليلًا ليستمتعوا بإفزاعى . يقودوننى كأننى فى طابور الموت مكبلًا بالأصفاد إلى سيارة الدورية .. ثم يقتادوننى إلى المخفر حيث أكون الأبيض الوحيد هناك .. أنيقًا مترفًا .. لن يجدوا ما هو أفضل من إلقائى فى زنزانة مليئة بالبلطجية الزنوج ليروا كيف أدافع عن نفسى . لهذا كنت أحمل شيئين .. هاتفًا خلويًّا أتصل به بـ (موردخاى) فور اعتقالى ، ومائتى دولار لدفع كفالة .. ربما أنجح فى الخروج بدلًا من المبيت فى الحجز ..

عدت إلى المكتب وطلبت من (صوفيا) أن تساعدنى فى العثور على (هكتور بالما) .. إنه هسبانى مثلها وعلى الأرجح سوف تعرف كيف تجده .. تركتها تجرى مكالماتها فكانت تبدأ المكالمة بالإنجليزية ثم تنتقل إلى الإسبانية التى تشبه الشجار .. تركتها لمدة ساعة ثم إذا بها تقرع بابى لتقول :

- « لقد رحل .. إنه فى شيكاغو .. هل تريد أن أبحث عن العنوان ؟ »

نظرت لها فى ذهول وقلت :

ـ « ولكن كيف استطعت أن .. ؟ »

ـ « لا تسأل .. صديق يعرف صديقًا فى كنيستهم .. إنه هسبانى إذن هو كاثوليكى على الأرجح .. هل تريد العنوان ؟ أستطيع أن أقودك إلى الطريق لكن الأمر لن يكون سهلاً »

لقد بحثت لمدة ساعة ثم وجدت العنوان ، فوفرت علىّ سماجة رجال الأمن والدق على الأبواب طيلة الليل فى البرد ..

إن فرع الشركة فى شيكاغو يقع فى ناطحة سحاب بها مصاعد ونافورات وأماكن للتسوق .. لقد ذهبت هناك مرتين ..

إنه المكان الأمثل لإخفاء (هكتور بالما) ..

* * *

عشرون

لدى المشردين إحساس غير عادى برجال الشرطة ، وقد شعر ذلك الرجل بوجود سيارة الشرطة المتخفية قرب مكتبنا وأخبر (صوفيا) بذلك .. أخبرت بدورها (موردخاى) .. لم أدر أنا بشىء من ذلك لأنى كنت منهمكا فى محادثة على الهاتف ..

لما انتهيت قالت لى (صوفيا) :

ـ « هناك سيارة شرطة بالخارج .. على الأرجح جاءوا للظفر بك .. »

وقال (موردخاى) :

ـ « لابد أنهم حصلوا على أمر اعتقال .. »

تظاهرت بالثبات وبأننى غير مهتم .. كانت المشكلة هى أن هذه ليلة الجمعة ومعنى هذا أنه لا مفر من قضاء ليلتى فى الحجز .. الفتى الأبيض الأنيق مع الحثالة بالداخل .. حتى لو اتصل (موردخاى) بالقاضى الذى أصدر الحكم فلن يبالى أحد بمشكلتى .. هناك مائتا محام يعتقلون كل ليلة ..

فى شقة (كلير) عندما واجهت (جاسكو) كنت أنا المحامى طلق اللسان قوى الحجة .. يقذف التهديدات ويطرح الأسئلة فى وجه (جاسكو) الشرطي المذعور . لم أتصور قط أنه سيأتى يوم يعتقلنى فيه هذا الرجل ..

لقد دخل المكتب منتصرًا حاملاً أوراقه التى ينوى أن يرميها فى وجهي ، وقال لـ (صوفيا) :

ـ « أريد مستر (بروكس) .. »

خرجت من مكتبى باسمًا ، وقلت :

ـ « مرحبًا (جاسكو) .. أما زلت تبحث عن ذلك الملف ؟ »

ـ « ليس اليوم ! »

سأله (موردخاى) فى خشونة :

ـ « أنا محاميه .. فهل معك إذن باعتقاله ؟ »

ـ « نعم .. »

مشيت نحوه قائلاً :

ـ « هيا بنا .. »

أخرج أحد مساعديه زوجًا من الأصفاد وكبل ذراعى لظهرى بالمعدن البارد .. كان القيد ضيقًا أو على الأقل أضيق مما توقعت .. قال (موردخاى) :

ـ « سوف أحضر موكلى بنفسى لمركز الشرطة .. »

ـ « لا .. نحن سنوفر عليك هذه المشقة »

ـ « إذن سأتبعكم .. »

وخرجنا إلى الردهة حيث كان ثلاثة من عملائنا ينتظرون ، فراحوا ينظرون لى فى ذهول .. كنت أتوق إلى الاختباء فى السيارة بسرعة .. هكذا غصت فى المقعد الخلفى إلى جوار (جاسكو) وأنا لا أرى ما أمامى ..

قال (جاسكو) :

ـ « يا لمضيعة الوقت ! هناك مائة جريمة قتل وألف تاجر مخدرات وحادث اعتداء فى كل ناصية ، لكن علينا أن نضيع وقتنا معك »

ـ « إذن أطلق سراحى .. »

ـ « لو كان الأمر بيدى لفعلت . لكن المدعى العام يتلقى ضغطًا .. »

هذا مفهوم .. الشركة لا تنوى تضييع وقتها مع رجال الشرطة ، وإنما تدخل فى مناقشة قانونية مع المدعى العام لإقناعه بالقضية .. لا يهم .. (مارتن لوثر كنج) دخل السجن .. أناس مهمون مشاهير دخلوا السجن وكبلوا بالأصفاد .. هناك قاض ينفذ حكمًا بأشغال شاقة مؤبدة فى (ممفيس) .. ممثلون وأبطال رياضة قبض عليهم وهم يهربون الكوكايين أو يخالفون المرور ..

ثمة نوع من الراحة فى هذا .. لقد تم الأمر أخيرًا .. لا مزيد من الفرار والنظر خلفى .. لا مزيد من القلق .. لكنى برغم هذا خائف .. قد يتأخر دفع الكفالة إلى الأحد أو الأثنين .. ربما أوضع فى زنزانة مع أناس قذرين ..

حاولت الاسترخاء وهو ما وجدته مستحيلاً وأنا جالس على يدى ..

كنت تائهًا أثناء اقتيادي ، و(جاسكو) يقتادنى ككلب ضال .. لا تنظر لهؤلاء الناس .. عملية جرد متاعك .. البصمات .. التصوير .. الليل يزحف والجريمة تتزايد وسوف يكون الحجز مزدحمًا ..

فى النهاية اقتادنى (جاسكو) إلى ممر طويل وقضبان .. ثم باب حديدى ينغلق خلفى ..

كان زملاء الزنزانة كلهم من السود الأصغر سنًا .. عددت أربعة .. الخامس كان راقدًا .. كلهم ينظر لى وأنا أبحث عن مكان أجلس فيه بحيث لا ألمس أيًا منهم .. ولاحظت أن الباب عبارة عن قضبان مما جعل من فى الزنزانة المقابلة يروننا بوضوح .. لم يكن هذا هو الوقت المناسب كى تكون أبيض ..

نهض شاب ومشى نحوى ووقف جوارى ثم ركل قدمى ، وقال :

ـ « جاكيت جميل ! »

هذه هى النهاية إذن .. لذا قلت :

ـ « شكرًا »

محاولاً ألا أبدو ساخرًا أو مستفزًا . إنه رشيق قوى البنية .. يبدو أنه قضى حياته كلها فى شجار الشوارع ، وهو يحاول أن يستعرض شجاعته أمام رفاقه .. لن يظفر بفريسة أكثر سهولة منى مهما حاول ..

ـ « لم ألبس (جاكيت) أنيقًا كهذا فى حياتي »

قال أحد الرجال :

ـ « الجدع يقول إنك تلبس (جاكيت) جميلاً .. »

ـ « وأنا قلت له شكرًا .. هل يريد أن يقترضه ؟ ماذا يريد أن أفعل ؟ »

ـ « لو أهديته له لكان هذا أنسب .. »

الآن اكتملت دائرة الحصار من حولى ؛ لذا نزعت الجاكيت وناولته لهم ..

ـ « هل هى هدية ؟ »

ـ « هى ما شئت .. »

كانت ركلة عنيفة تلك التى ضربت رأسى فجعلته يصطدم بالجدار خلفى ، ومن جديد عاد السؤال :

ـ « هل هى هدية ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « شكرًا يا رجل .. »

بعد دقائق ظهر آخر ووقف يراقبنى .. خفضت عينى فلم أر إلا قدميه العاريتين .. ثم قال :

ـ « حذاء جميل .. »

من دون كلمة مددت يدى ونزعت الحذاء .. ماذا عن الليل إذن ؟ كيف سننام وليس هنا إلا فراشان ؟ ماذا عن استعمال المرحاض وشرب الماء ؟ ماذا عن قميصى وثيابى الداخلية ؟

فى هذه اللحظة أنقذنى (موردخاى) الذى أنهى إجراءات الكفالة بسرعة .. كفالتى كانت عشرة آلاف دولار دفعت منها ألفًا ووقعت الأوراق .. وفى الخارج كانت (صوفيا) بانتظارى ..

ـ « أين حذاؤك ؟ »

ـ « أعطيته هدية لأحد المساجين ! »

عاد أحد الحراس لى بسترتى وحذائي ، وسرعان ما كنا نغادر هذا المكان الرهيب ..

* * *

واحـد وعشـرون

فى الصباح كانت صورتى تحتل كل الصحف مع قصة مؤثرة عن المحامى الذى خان الأمانة وسرق ملفا من الشركة التى دربته .. أعتقد أن الجميع يحفظ وجهى الآن .

لم تستطع (روبى) الخلاص من المخدرات برغم إقامتها فى ملجأ (ناعومى) ؛ لذا تفتق ذهنى عن فكرة لا بـأس بها .. أخذتها بسيارتى إلى (موتيل) فى بلدة صغيرة مجاورة للمدينة ودفعت إيجارها وثمـن طعامها ، ثم تركتها هناك .. كانت هذه خطتى التى رتبتها مع (ميجان) .. تلك المديرة الفاتنة لملجأ (ناعومى) .

حتى لو أرادت (روبى) فمن المستحيل أن تحصل على مخدرات فى هذا المكان .. واتصلت بها لأطمئن عليها فوجدتها لم تغادر غرفتها ، بل ظلت تشاهد التلفزيون وتأكل بلا انقطاع ..

بعد أربع وعشرين ساعة ذهبت لآخذها فوجدتها ترتدى ثيابًا جديدة وقد استحمت .. كانت غرفتها فى الطابق السفلى فخرجت راكضة نحوى واحتضنتنى صائحة :

ـ « أنا نظيفة ! لم ألمس المخدرات منذ أربع وعشرين ساعة ! »

عدت بها بسيارتى إلى ملجأ (ميجـان) .. هنـاك عقدوا لها احتفالا صغيرًا .. قالت لـى (ميجـان) إن أول أربع وعشرين ساعة هى الأصعب وهى التى تستحق التهنئة .. وجلست مع (ميجان) فى الحديقة نشرب القهوة ونخطط مـا بعد ذلـك .. يجب علـى (روبى) أن تحضر كذلـك جلسات الـ (AA) التى تساعد المدمنين .. لكن (ميجـان) لم تكن متفائلة ، لأن تجار المخدرات فى كل مكان ولـن تلبث (روبى) أن تعود للشـارع والتعاطى من جديـد .. هذا يحدث كل يوم ..

كانت المشكلة هى أننى ذاهب إلى شيكاغو للبحث عن (هكتور بالما) .. هكذا اتفقنا على أن تأخذها (ميجان) إلـى موتيل آخر على حسابى وتستردها صباح الاثنين .. بعدهـا نخطط ما يجب عمله .. ربما أخذناها إلـى مركز تـأهيل تمضى فيه ستة أشهر من العمل والرقابة الطبية ..

دعتنـى (ميجـان) إلـى تنـاول الغداء فـى مكتبهـا .. كانت عيناها ترقصـان كأنما تطلبـان منـى أن أوافـق .. وقد وافقت ..

* * *

يسافر المحامون فى (دريك وسوينى) بالدرجة الأولى شاعرين بأنهم يستحقون هذا ، ويقيمون فى فنادق ذات أربعة نجوم .. إن العملاء يدفعون كل هذه النفقات ..

لكن مقعدى فى الطائرة تم حجزه فى آخر لحظة .. أغلقت عينى لمدة ساعتين وحاولت ألا أفكر فى المؤخرات الفخور الجالسة فى الدرجة الأولى حيث كنت أجلس فى الماضى .. كان سفرى هذا خرقًا لقانون الكفالة الذى يحتم أننى لا أغادر البلدة من دون إذن القاضي ، لكن (موردخاى) أكد أن هذا غير خطير .

لا يوجد لدى أى عنوان لـ (بالما) .. ولو لم أجده فى شركة (دريك وسوينى) هنا فهذا حظى السيئ .

فرع (دريك وسوينى) فى شيكاغو يعمل به ١٠٦ محامين .. قسم العقارات يعمل به ١٨ محاميًا ..

ابتعت جريدة أخفى بها وجهى ورحت أراقب مدخل المصاعد .. كانت السابعة والنصف صباحًا أى إن هذا وقت وصول الموظفين ..

فى الثامنة والثلث دخل (هكتور بالما) البناية .. مسرعًا يهرع إلى المصعد .. إنه هو .. بالفعل كما توقعت نقلته

الشركة إلى هنا فى منتصف الليل كى تتمكن من رشوته ومراقبته وتهديده ..

ركبت المصعد فى التاسعة وصعدت إلى حيث قسم العقارات .. وقبل أن تبادرنى موظفة الاستقبال بالسؤال عمن أريد وضعت يدى على فمى ، وسألتها عن الحمام لأنى أشعر بالغثيان وموشك على القىء .. هكذا لم تستطع إلا أن تشير لى إلى الحمام . وعندما غادرته كنت قد صرت داخل قسم العقارات فعلاً ..

وجدت مكتب (هكتور بالما) على الفور ، فدخلت وأغلقته خلفى .. ما إن رآنى حتى رفع كفيه كأنه يواجه مسدسًا ، وهتف :

- « ماذا بحق الجحيم ؟ »

- « مرحبًا (هكتور) .. كيف حال شيكاغو ؟ »

- « ماذا تفعل هنا ؟ »

- « يمكن أن أوجه لك ذات السؤال .. نحن سوف نرفع دعوى قضائية اليوم ضد شركة (ريفر أوكس) لصالح هؤلاء الذين طردوا من المستودع وهم مستأجرون قانونًا ..

أنت كنت تعرف هذا عندما نفذت أمر الإخلاء .. هل تذكر تلك الأم التى قاومت رجال الشرطة ؟ لقد وجدوها ميتة متجمدة مع أطفالها فى سيارة فى الشارع بعد ذلك .. هناك مذكرة كانت فى الملف تثبت هذا وقد تم انتزاعها .. الملف عندى لكنى أريد المذكرة .. لو أعطيتنى المذكرة فلن أطلبك للشهادة .. وأنت تعرف أن الشهادة سوف تغرق شركة (دريك وسوينى) وبالتالى لابد من طردك .. ما سأفعله أنا هو أن أستعمل المذكرة من دون إقحامك فى الموضوع . لن أذكر مصادرى .. »

- « ومن قال لك إن المذكرة عندى ؟ »

- « أنا واثق من أنك نسختها لتدافع بها عن نفسك إذا ادلهمت الأمور .. أنت أذكى من ألا تفعل .. »

أعرف يقينًا أن (هكتور) لن يكذب لأنه من وضع على مكتبى أسماء المطرودين والمفتاحين .. أعرف هذا .. إن لديه روحًا وضميرًا ..

- « إنهم سوف يطردوننى .. هل تعرف هذا ؟ »

- « على الأرجح سيفعلون .. لكن ستكون لدينا قضية ممتازة نرفعها عليهم .. أنا سأقوم بذلك ولن أتقاضى منك مليمًا .. »

فكر قليلاً ، ثم قال :

- « قابلنى عند الظهر أمام نافورة الماء أمام البناية .. »

* * *

من النافورة اتجهنا إلى (جراند أفينيو) حيث مطعم ببوفيه مفتوح .. ونحن فى الطابور ناولنى مظروفًا ، وقال :

- « لدى أربعة أطفال .. من فضلك احمنى .. »

وقبل أن أتكلم كان قد غادر المطعم .. ياقة معطفه تغطى أذنيه وهو يوشك على الركض فارًا تقريبًا ..

ركبت سيارة أجرة وفتحت المظروف .. هنا حيث لايعرف مخلوق بمكانى يمكننى أن أدرس المذكرة جيدًا .. كانت هناك مذكرة من (بالما) موجهة لـ (تشانس) تقول إنه ذهب إلى المستودع يوم ٢٧ يناير ، ومعه حارس مسلح اسمه (جيف ماكل) من شركة أمن (روك كريك) .. ذهب هناك فى التاسعة والنصف وغادر بعد ثلاث ساعات ..

فى الطابق الثالث وجد حوالى ١١ شقة من الخشب بأبواب من بلاستيك .. سمع بكاء طفل فدق أحد الأبواب لتفتح له امرأة تحمل رضيعًا ومعها ثلاثة أطفال .. أخبرها إنه جاء ليخلى البناية لأنها بيعت لشركة البريد لكنها أصرت على أنها استأجرت الشقة ممن يدعى (جونى) يأتى يوم ١٥ من كل شهر ليأخذ الإيجار .. لا أوراق .. كل تعاملها مع (جونى) هذا .. لكنها عرضت ورقة متسخة عليها إيصال استلام المبلغ ..

هذه الورقة قام (هكتور) بنسخها وألحقها بالمذكرة .. لم يكن يملك الحق فى الاعتراض أو المناقشة ، لكنه أعطى رؤساءه حبلاً طويلاً ليشنقوا به أنفسهم ..

قمت بإرسال فاكس بالمذكرة لـ (موردخاى) فى حالة ما إذا تم اعتقالى أو سرق منى هذا المظروف ..

* * *

اثنان وعشرون

عندما قابلت (موردخاى) كان يحمل لى مظروفًا رسميًا أعرف بالضبط ما فيه .. لقد كان من ثلاث صفحات أعدها أصدقائى الأعزاء فى (دريك وسوينى) لكن يمكن تلخيصها فى فقرة واحدة :

أنا الولد الشرير الذى سرق ملفًا من الشركة .. يجب إما أن : (١) : أشطب من سجل المهنة بشكل دائم أو (٢) : أوقف عن عمل المحاماة عدة أعوام أو (٣) : أؤنب علنًا ..

استندت إلى جدار شاعرًا بالدوار .. الشركة تريد الدم .. هذا واضح .. شركة كبيرة تعمل مثل مثيلاتها بسياسة : (لا أسرى) .. لكنهم لا يعرفون أننى سأقاضيهم غدًا وأطالبهم بعشرة ملايين بسبب الإضرار بـ (آل بيرتون) الذين طردتهم فماتوا فى الشارع .. لقد استطاع (موردخاى) ترتيب القضية عن طريق تعيين من تدعى (ويلما فيلان) - وهى ناشطة فى المجتمع المدنى - لتكون قيمة للمطالبة بالحق المدنى ، بما أن الأسرة لا أقارب لها ولا أحد يعرف أبا الأطفال الأربعة إن كان لهم أب واحد .. بالطبع سوف

نتقاضى عشرة بالمائة من التعويض ، وهو مبلغ مضحك فقد جرت العادة على ٤٠٪ لكننا لم نكن نبغى الربح ..

* * *

مررت على الموتيل الذى تقيم فيه (روبى) لأننى لم أعد أستطيع مواصلة الإنفاق عليها بمعدل أربعين دولارًا كل ليلة .. قرعت الباب عدة مرات فلم يرد أحد .. نزلت للاستقبال فعرفت أن أحدًا لم يرها تغادر .. هذا غريب ..

صعد معى موظف الاستقبال الذى لم يسعده أن نستخدم فندقه الجميل كمصحة للإقلاع عن المخدرات .. قرع الباب مرارًا ثم فتح الباب فلم نجد أحدًا ..

أين عساها قد ذهبت ؟ إن المخدرات مغناطيس يشدها للشارع كل مرة ..

اتصلت بـ (ميجان) أخبرها بهذا ثم عدت لمكتبى .. لست قلقًا عليها .. إنها قادرة على الحياة فى الشارع أكثر منى .. عندى على كل حال أمور أهم هى القضية التى ننوى رفعها .. لو لم تطرد شركة (ريفر أوكس) تلك الأم وأطفالها الأربعة لما عاشوا فى الشارع ، وبالتالى لما ماتوا

بردًا .. هذا منطق واضح سهل ولابد أن يجده المحلفون كذلك .. ألق بأم وأطفالها فى الشارع وسيكون عليك تحمل التبعات لو حدث لهم مكروه ..

المشكلة هى الملف .. سوف تطلب منى الشركة تقديم الملف للقاضي ، وسوف أفعل وهذا فى حد ذاته اعتراف بالجريمة .. قد أفقد مهنتى ..

كانت خطة (موردخاى) هى تجاهل القضية تمامًا لحمايتى .. يمكن أن يعقد صلحًا مع (دريك وسوينى) .. يتنازلون عن سرقة الملف مقابل الملف ذاته وعدم الإساءة لاسمهم .. إن شركة (دريك وسوينى) شركة عظيمة الكبرياء تعتمد على سمعتها الحسنة .. أعرف عقدة المحامين الكبار هذه .. إنهم يشعرون فى قرارة أنفسهم بالذنب لأنهم يحصلون على كل هذه المكاسب .. من ثم يكرهون أى شىء يظهرهم قساة أو أشرارًا أمام المجتمع .. لكنى كنت مصرًا على المضى قدمًا ..

أنهينا إجراءات التقاضى ، وكان بانتظارنا صحفى هو صديق (أبراهام) أعطيناه تقريرًا وافيًا عن موضوع

القضية .. هذه القضية ستروق للجميع وسوف يحاول الجميع الخلاص من المسئولية عن طريق إلقائها على كاهل مجموعة من المحامين الأثرياء ..

أنا أفهم مزاج شركتى السابقة وأعرف كيف اجتمعوا على نشر قصة القبض علي ، وكيف أهدوا صورتى للصحافة لمزيد من الإهانة لى .. الآن أفعل الشىء ذاته لأنى أفهمهم وأعرف كيف يفكرون ..

سوف تصدر صحف الغد وفيها صورة مديرى شركتنا بطريقة مهينة .. وسوف توجه لهم الاتهامات علنًا .. أستطيع أن أتخيل الشركة وقد سادها الوجوم والصمت ، فلابد أن دار مناسبات الموتى أكثر مرحًا من هذا ..

لقد قرروا الهجوم على أوردة عنقى .. دعهم يتعذبون قليلاً إذن ..

* * *

ثلاث وعشرون

خرجت مع (ميجان) مديرة الملجأ فى نزهة بالسيارة .. لم نتوقع قط أن نقابل (روبى) ، لكنها كانت فرصة كى نمضى بعض الوقت معًا ..

قالت لى :

ـ « لقد رأيت كل شىء مع المدمنين .. لا يمكن أن تتوقع أبدًا سلوكهم .. فقط عندما يظفر أحدهم بعمل ومسكن نحمد الله ثم ننتظر المدمن التالى .. إن الوديان أكثر من الجبال فى هذه الحياة .. »

ـ « ألا تشعرين بالقنوط ؟ »

ـ « أتعلم الأمل من زبائنى .. أكثرهن شخصيات قوية . جئن الحياة وحيدات بلا أية فرصة ، لكنهن يستطعن الحياة .. يتعثرن طيلة الوقت لكن يستمررن فى المحاولة .. »

درنا فى المنطقة وتفحصنا بعض السيارات المحطمة ، ثم إننى أعدتها إلى الملجأ .. لقد صارت (روبى) عذرًا طيبًا يجعلنى أرى (ميجان) باستمرار ..

* * *

كانت التاسعة وعشرين دقيقة عندما وصلت مع محاميى إلى بناية (كارل مولتري) مركز القضايا المدنية والجنائية فى وسط البلد .. لم أكن هنالك قط لكن (موردخاى) كان يعرف الطريق ..

داخل المكان كان حديقة حيوان .. هناك ردهة مليئة بأناس قلقين وقاعات محاكمة فى كل مكان .. فى الغرفة ١١٤ بالطابق الأول كان المحترم (نورمان كزنر) القاضى .. وكان اسمى فى أول (الرول) . دخلنا فجلست فى الصف الثانى وكانت القاعة خالية ..

سمعت من خلفى من يقول :

ـ « مرحبًا يا (مايكل) .. »

نظرت للخلف فوجدت زميلى القديم (رافتر) .. كان ومن معه يمثلون الضحية من ثم كان لهم الحق فى التواجد فى كل مراحل تقديمى للمحاكمة ! لكن لماذا جاء (رافتر) ؟ إنه الأكثر شراسة ودناءة من كل زملائى ، ووجوده لابد أن يسبب لى الذعر ..

نادانى (موردخاى) لغرفة القاضى فلحقت به ، حيث صافحت القاضى ودعانا للجلوس .. كان القاضى (كزنر)

فى السبعين على أقل تقدير .. لحية شائبة وعينان بنيتان تحرقانك عندما يتكلم .. وكان يعرف محاميى منذ أعوام ..

قال لى :

ـ « أعرف شركتك منذ زمن .. شركة ممتازة لديها محامون ممتازون ، وهم يدربونهم جيدًا .. »

كنت أشعر بعدم راحة لكونه يطرى ضحاياى لهذا الحد ..

ـ « هذه قضية غير معتادة إلى درجة مدهشة .. لكن لنفترض أنك أخذت هذا الملف ولنفترض أنك رددته لى .. عندها يمكن أن أقيّم ثمنه بمائتى دولار وننهى الأمر كجنحة .. »

ـ « وماذا لو لم أرده ؟ أتحدث للعلم فقط »

ـ « عندئذ تزداد قيمته بالنسبة لنا ، وسوف تكون محاكمة بتهمة السطو .. لو استطاع المدعى إقناع المحلفين فلسوف يصير من واجبى أن أحكم عليك .. ولو صدر حكم سوف تلغى رخصة محاماتك .. »

وازدادت تجاعيد جبهته مما جعلنى أدرك أن حكمه على شىء يجدر بى أن أتحاشاه ..

منحنا أسبوعين لاتخاذ قرار وهكذا غادرنا غرفته لنجلس فى قاعة المحكمة من جديد ..

فى سيارة (موردخاى) ونحن عائدان سألته :

ـ « والآن أيها المستشار ما رأيك ؟ »

ـ « ما زال أمامنا أسبوعان .. دعنا لا نتعجل الأمور ولنفكر بحرص »

فور عودتنا للمكتب ، اتصلت بشركة (دريك وسوينى) طالبًا الكلام مع (تشانس) .. بالطبع انتحلت اسمًا مستعارًا .. لكن السكرتيرة قالت لى إنه فى إجازة .. إجازة لا تعرف متى يعود منها ..

كنت أعرف شركتى جيدًا .. إجازة لا تعرف موعد العودة منها يعنى ببساطة أنهم طردوك .. هذا ما حدث إذن .. لقد تصرف (تشانس) على مسئوليته وقام بإخلاء المستودع ممن فيه ، وهو يعرف يقينًا أنهم مستأجرون .. لم يخبر الشركة بهذا .. وعندما اتضح الأمر وجد أنه عاجز عن تفسير موقفه .. لقد جلب الوبال على الشركة وسبب لها مشكلة وفضيحة مع

عملائها . لو أنه اتخذ الإجراءات القانونية لأعطى المستأجرين إنذارًا لمدة شهر ، ومعنى مرور شهر ضياع الصفقة من شركة (ريفر أوكس) .. لكن هذا فى الوقت ذاته كان يعنى رحيل الشتاء القاسى .. كانت الشوارع ستكون أكثر رفقًا بهؤلاء البؤساء ..

يمكننى أن أتخيل القيادات الكبرى فى الشركة ترغى وتزبد ، وتجتمع لتقرر إعطاء (تشانس) إجازة مفتوحة .. ربما منحوه مكافأة لا بأس بها لكنهم تخلصوا منه على كل حال ..

* * *

كان عضو الكونجرس جمهوريًا من (إنديانا) يدعى (بيركهولدر) .. وكان يحب الركض ليلًا حول (كابيتول هول) .. تم إطلاق النار عليه يوم الأربعاء أثناء ركضه وحيدًا .. كان يلبس بزة تدريب بلا جيوب ، فكان جليًا أنه لا يحمل شيئًا ثمينًا .. يبدو أن السرقة لم تكن هدفًا ..

اخترقت الطلقة ذراعه وكتفه وتوقفت قبل العنق بقليل .. وقد وصف أحد الشهود المعتدى بأنه زنجى أسود من الطراز المتشرد .. نجا عضو الكونجرس بعد

جراحة استغرقت ساعتين ، وكانت هذه أول مرة منذ ردح من الزمن يطلق فيها الرصاص على عضو كونجرس .. بعضهم تعرض لاعتداء وكان هذا يتيح له الكلام عن الجريمة وتدنى معدلات الأمن ، وبالطبع إلقاء التهمة على الحزب الآخر ..

هكذا خرج رجال الشرطة ينظفون شوارع واشنطن من كل شخص بلا بيت .. كل المتسولين تم اعتقالهم ..

فى اليوم التالى خرج عضو الكونجرس ليواجه الصحافة فى مشهد مسرحى تم إخراجه جيدًا .. كان على مقعد متحرك وأربطة الشاش تحيط بعنقه ، ثم أعلن أنه بخير .. فقط بدأ يتكلم عن الجريمة فى واشنطن .. سوف يكرس حياته من هذه اللحظة لاستعادة الأمن فى الشوارع ..

هكذا سقط عبء مروع على كاهل رجال الشرطة ، الذين واصلوا حملات الاعتقال ليلا .. مع إلقاء المشردين فى السجون أو نقلهم كالماشية إلى أماكن أخرى ..

* * *

أربع وعشرون

ظهرت (روبى) ثانية أمام مكتبى صباح الاثنين ، بشهية مفتوحة للقهوة والكعك .. بدا لى أنها منتعشة وأنه لا أثر للمخدرات على وجهها .. اقتدتها للداخل ..

- « كيف حالك وأين كنت تعيشين ؟ »

- « فى سيارتى .. »

- « نعم .. يسرنى أن الشتاء راحل .. سوف أوصلك إلى ملجأ (ناعومى) »

كنت أتمنى أن أسألها عن إقامتها فى الموتيل وسر رحيلها عنه ، لكنى رأيت أن أتجاهل هذا أفضل .. صببت لها القهوة بينما هى تقرض الكعك بلا توقف كالفأر ..

أوصلتها إلى الملجأ وتبادلت بعض كلمات الغزل مع (ميجان) ثم عدت للمكتب حيث بدأ الزحام ..

كنت منهمكًا فى العمل عندما اقتحمت (صوفيا) الغرفة .. بما أن الباب لا ينغلق فقد دخلت فى ذات الوقت الذى قرعته فيه .. وبالطبع لم تكن تستعمل ألفاظ (من فضلك) أو أى شىء آخر .. القلم خلف أذنها وعويناتها مرفوعة ، وقالت لى :

- « أين قائمة المطرودين من المستودع ؟ »

ناولتها القائمة .. فتفحصتها ثم هتفت :

- « وجدتها ! رقم ٨ .. (ماركيز ديس) .. إنه يجلس بالخارج معى ! لقد انتزعوه من حيث كان يمضى ليلته أمام البيت الأبيض بسبب حادث الاعتداء على عضو الكونجرس .. اليوم يوم حظك ! »

خرجت معها لأرى (ماركيز) فوجدته يشبه (مستر) كثيرًا .. جريت لأخبر (موردخاى) كى يتولى الأمر بنفسه ..

قال (موردخاى) ونحن نقف أمام الرجل :

- « نحن نتولى قضية أناس كانوا يقيمون فى مستودع عند تقاطع شارعى (فلوريدا) و(نيويورك)(*) ..

- « كنت أعيش هناك .. قضيت ثلاثة أشهر .. »

- « وكنت تدفع الإيجار لرجل يدعى (جونى) ؟ »

- « نعم .. »

(*) كما هو واضح طيلة الرواية ، تستعمل أسماء الولايات فى واشنطن - باعتبارها العاصمة - لكنها أسماء شوارع ..

- « نحن نريد أن نمثلك فى قضية طلب تعويض لأننا نرى أن طردك كان غير قانونى .. سوف تحصل على الكثير من المال .. »

عندما انفردت مع (موردخاى) قلت له إن علينا أن نحصل على شهادة هذا الرجل قبل أن يحدث له شىء .. سوف نعد شهادة موقعة تشهد عليها (صوفيا) .. سألته إن كان لديه جهاز كاسيت فأكد أن لديه واحدًا لكنه لا يعرف أين .. معنى هذا أنه سيقضى شهرًا فى البحث .. سألته عن كاميرا فيديو فقال : لا ..

- « إذن سأحضر الكاميرا الخاصة بى .. فقط أبقه هنا وسأعود خلال ٤٥ دقيقة ! »

- « لن يذهب لأى مكان .. »

هرعت أركض فى الشارع واتصلت بـ (كلير) طالبًا اقتراض كاميرا الفيديو .. قالت لى إنها فى الصالة حيث تركتها .. إنها لم تغير الأقفال .. هذا أشعرنى بشىء من البهجة .. بوسعى أن أدخل وأخرج متى أردت ..

هكذا أجلسنا (ماركيز) فى مكتب داخلى ، وبدأت التصوير على حين استجوبه (موردخاى) . كان يعرف

مكان اثنين آخرين من المطرودين ، وقد قررنا أن نقيم دعوى منفصلة لكل منهم ..

عندما انصرف (ماركيز) دق جرس الهاتف .. سمعت من يسأل عن (موردخاى) .. سألته من هو قال :

- « آرثر جاكوبس من (دريك وسوينى) ! »

كاد قلبى يتوقف لكنى طلبت منه الانتظار وهرعت إلى مكتب (موردخاى) لأخبره أن (آرثر جاكوبس) أهم رأس فى شركتى السابقة على الهاتف ..

دارت المكالمة .. وعرفت أنهم يريدون لقاء (موردخاى) فى الشركة غدًا من أجل تسوية .. لم يطلبوا لقائى وكنت أتوقع هذا .. عندما انتهت المكالمة سألته عما إذا كان يعتقد أنهم خائفون ..

قال باسمًا :

- « طبعًا خائفون .. نحن لم نبدأ على الإطلاق وهاهم أولاء يطلبون تسوية .. إن الأمور تتحسن .. »

* * *

خمس وعشرون

فيما بعد حكى لى (موردخاى) تفاصيل اللقاء الذى لم يحضره سوى (آرثر) و(رافتر) ومحامى شركة (ريفر أوكس) .. فى البدء لم يصدق أن (آرثر) فى الثمانين ، فهو لا ينسى شيئًا وكل التفاصيل فى ذهنه .. قدموا قهوة ممتازة مع الكعك ، وكلموه عن تسوية لأن الشركة تضايقت من الحملة الصحفية عليها .. أوضحوا أن (تشانس) كذب على الشركة وتصرف بشكل منفرد لهذا عوقب بالطرد .. لم يستقل لكنه طرد ..

سألهم (موردخاى) عما إذا كانوا رأوا المذكرة التى لم يضعها فى الملف فبدت عليهم الدهشة .. أخرج من حقيبته صورة المذكرة التى تثبت أن الأم الميتة كانت تدفع الإيجار .. قال إن قضيته واضحة وسوف يفهمها المحلفون جيدًا ، خاصة أنه سيحرص على انتقاء محلفين من السود كى يتعاطفوا مع المطرودين .

عرضوا عليه دفع خمسمائة دولار لكل متوف .. لكنه قال إن هذا لا يكاد يقارب المبلغ المطلوب .. لن

يرضيه إلا دفع مليون دولار لكل متوف ، وهذا يعنى خمسة ملايين ..

بالنسبة لى عرضت الشركة تسوية موضوع سرقة الملف ، لكن بشرط أن يتم وقفى عن العمل عامين كاملين كنوع من العقاب الواضح ..

طبعًا لم يكن هذا واردًا بالنسبة لى .. طلبوا كذلك ألا يتسرب شىء آخر إلى الصحف ، فقال لهم (موردخاى) إنهم من بدأ عمليات التسريب هذه .. لقد أبلغوا الصحف بكل شىء عن اعتقالى وسرقة الملف ، وهذا يجعلنا متساويين ..

جلست فى غرفتى بعد رحيل الجميع أتأمل الجدار وأفكر .. لو أننى سلمت الملف لقبلت الشركة التسوية وعاد كل شىء إلى موضعه الصحيح .. أعرف كم هم يكرهوننى .. بالنسبة لهم أنا (يهوذا) الذى سرق معلومات تخصهم وهو يعمل معهم ثم راح يهددهم بها ..

دخل (موردخاى) فألقى بنفسه على مقعد من المقاعد التى ابتعتها من (سوق البراغيث)(*) بستة دولارات ، وقال :

(*) تعبير عامى عن سوق الأشياء المستعملة ..

ـ « القاضى (دى أوريو) يريد أن تلتقى كل الأطراف فى محكمته غدًا من أجل مناقشة قضيتك ضد الشركة .. أنا .. أنت .. هم .. هل تعرفه ؟ »

ـ « لا أذكر الاسم .. »

ـ « هو رجل صارم .. شريف وعصبى ويحب أن يصرخ فى المحامين .. إنه يريد تسوية القضية بسرعة لأنه يريد أن يكون (رول) قضاياه خاليًا .. كل قاض يحب هذا لأنه يعطيه وقتًا أكثر للعب الجولف .. إنه يريد أن تكون هناك غدًا .. تجلس فى مقعد المحلفين .. وأن تجلب معك الملف .. »

ـ « بالتأكيد .. »

ـ « لا صحافة .. لا عدسات .. إنه يكره هذه الأمور فى محكمته .. بوسعه أن يغلق الملف لو تضايق منك .. على فكرة .. سيكون ذلك القواد (جانتري) الذى كان يملك المستودع هناك .. وهو شخص غير مريح .. بلطجى حقيقى وأعتقد أنه متضايق من أنك أقحمته فى القصة .. »

ـ « هل يعرف أنه سيجتاز جهاز كشف عن السلاح على باب المحكمة ؟ »

- « غالبًا .. »

- « وما هو الصواب لأفعلـه يا (موردخـاى) ؟ لقد فقدت الرؤية الصائبة »

- « أنت أخذت الملف من أجل عمـل خير .. لـم تنو سرقته .. عمل شريف هو لكنه مـا زال سرقة .. الأمر ما زال فى يدنـا .. يمكن أن أتصل بـ (آرثر) أقول لـه أن يسقط كل الاتهامات مقابل أن نسقط كل الاتهامات من جانبنا .. هذه قطعة كعك تلقى لـه .. وهذه القضية لـن تحـدث أى فـارق معـي .. الأسـرة مـاتت فعـلاً .. لا أقارب لهم ينتفعون بـالتعويض .. باختصـار لا لـزوم للقضية أصلا .. »

- « الصحافة ستمزق لحمنا .. »

- « وهل تعتقد أن هؤلاء البؤساء الذين يـأتون لنـا يبالون لحظة بما تقول الصحافة ؟ »

قلت له :

- « وماذا أكون قد حققت من كل هذا ؟ هم ينجون بفعلتهم ، برغم أنهم تسببوا فى قتل أسرة .. وكل هذا كى أحتفظ برخصة ممارسة المهنة ؟ »

كنت أعرف أنه يلعب معى دور محامى الشيطان ويقـول ما لا يؤمن به .. هو لا يريد من هذه القضية مالاً .. كل ما يريده هو محاكمة صاخبة تسلط عليهـا الأضواء ويتذكر النـاس حقـوق هـؤلاء المشـردين .. ليسـت المحاكمـة قصاصًا فى كل الأحوال .. أحيانًا هى منابر وعظ ..

* * *

ست وعشرون

كانت قاعة محاكمة (دى أوريو) فى الطابق الثانى من بناية (كارل مولترى) .. إنها قريبة من قاعة القاضى (كيزي) التى تناقش فيها قضية الشركة ضدى .. عملية معقدة جدًا ..

لم نتأخر عن الموعد لكنى صممت ألا ندخل القاعة قبل الوقت حتى لا أواجه نظرات (رافتر) و(آرثر) و(جانترى) الذى لا أتمنى أن أنفرد معه فى مكان واحد ..

اتخذت مقعدى وسط مقاعد المحلفين ، بينما جلس (موردخاى) فى مقعد الادعاء .. وجلس محامو الشركة ومنهم ثلاثة من رهائن (مستر) - إلى جوار (جانترى) واثنين من محاميه .. كنت أتوقع أن هذا الأخير باعتباره قوادًا يلبس الكثير من الخواتم وثيابًا مزركشة ، لكنه كان يلبس بدلة أنيقة وبدا أكثر أناقة من المحامين .. وكان هناك اثنان من محامى شركة (ريفر أوكس) ..

ثلاثة من رهائن (مستر) هنا .. فماذا حدث لى ؟ كلهم احتفظوا بعقولهم بينما جننت أنا .. لماذا لعبت دور الأخت الهشة ؟

فى الواحدة بالضبط دخل القاضى واتخذ مقعده .. قال لنا :

- « مساء الخير .. »

ثم أصلح من وضع الميكروفون وطلب من مستر (بيرديك) أن يغلق الباب .. مستر بيرديك هذا هو حارس أمن . ثم قال :

- « عرفت من سكرتاريتى أن كل الأطراف هنا .. »

ونظر لى كأنى مجرد سفاح نساء آخر ..

- « ليكن واضحًا أنه لن ينقل للصحافة أى حرف يقال فى هذه الجلسة .. هل هذا مفهوم ؟ »

نظر لى الجميع ، فكدت أقف لأذكرهم أننى وإن كنت من وجه أعنف ضربة فإنهم هم من وجه اللكمة الأولى عندما نشروا صورتى فى الصحف .. هنا مرت موظفة

لتجعلنى أوقع على إقرار بعدم كشف أسرار هذه الجلسة .. وقعت بينما رجال (دريك وسوينى) يراجعون فقرات إقرارهم بحثًا عن ثغرات ما .. هكذا تدربنا جميعًا ..

دعا القاضى (موردخاى) للكلام خلال خمس دقائق .. نهض هذا ويداه فى جيبيه وبلا مذكرات ، وراح يتكلم .. منتهى الثقة والشعور بالراحة ..

بعد هذا نهض (آرثر) يدافع عن شركته فأقر منذ البداية بأن عملية الإخلاء كانت خطأ .. لكنه اتهم العاصفة .. واتهم أم الأطفال ذاتها بأنه كان بوسعها أن تبيت فى أى ملجأ أو تذهب لتعيش عند أمها .. بشكل ما هى مسئولة عما حدث لها وأطفالها .. هذه آخر مرة يستطيع فيها أن يوجه اتهامه لأم ميتة ، لأنه فى المرة القادمة سيكون هناك محلفون لون بشرتهم مختلف .. وعندها لن يجسر أى محام فى العالم على اتهام أم زنجية ميتة بالمسئولية عن موتها هذا ..

نهض (موردخاى) وقال :

- « ليس بوسع هؤلاء القوم الحصول على مسكن بسهولة يا سيدى ، لذا نطلق عليهم مشردين . أنتم طردتموهم للشارع وهناك ماتوا .. هذه هى الحقائق .. سيكون من دواعى سرورى مناقشتها مع المحلفين .. والأهم أننا سنرفع قضايا أخرى من أجل كل من تم طردهم من المستودع .. »

بالطبع ارتجف (آرثر) لفكرة أن ينطلق (موردخاى) طليقًا فى قاعة المحكمة أمام محلفين لهم لون بشرته .. كان بارعًا ولو كان الأمر بيدى لأعطيته شيكًا على بياض ..

طلب منى القاضى أن أناوله الملف ، فأخرجه (موردخاى) من حقيبته وناوله للقاضى الذى راح يقلب صفحاته ثم سأل (آرثر) :

- « لقد عاد ملفكم .. فهل أنتم راغبون فى التسوية ؟ »

- « لو استقررنا على باقى النقاط فنحن راغبون فى ذلك سعادتكم .. »

- « وماذا عن مستر (بروك) ؟ »

بالطبع أرغب فى ذلك ..

سألنى القاضى :

- « هل تعتبر نفسك مسئولاً عن سرقة الملف ؟ »

لم أكن قد أعددت ما أقول لكنى وقفت وقلت :

- « مستر (جاكوبس) .. كنت أحترمك بشدة ومازلت .. لقد أخطأت عندما أخذت الملف وقد تمنيت ألف مرة لو لم أفعل .. كنت أبحث عن معلومات اعتقدت أنكم تخفونها ، لكن لا عذر لى ، وإننى لأعتذر لك والشركة وعميلك .. »

وجلست دون أن أرفع عينى .. فيما بعد قال لى (موردخاى) إن هذا الاعتراف المتواضع قد رفع درجة حرارة القاعة بضع درجات بعدما بلغت درجة التجمد ..

هنا طلب القاضى أن يتحدث على انفراد مع كل منا ، وطلب أن أقابله فى غرفته أنا و(موردخاى) .. ثم قابل (آرثر) .. بعد هذا استدعانا لقاعة المحاكمة ، وقال :

- « آخر ما توصلنا إليه هو أن شركة (دريك وسوينى) ستدفع ثلاثة ملايين مع وقف المستر (بروك) عن ممارسة المهنة لمدة عام .. »

صاح (موردخاى) وهو يحمل حقيبته :

- « إذن نحن نضيع وقتنا .. إننى أطلب الإذن بالانصراف سعادتكم .. »

قال القاضى فى ضيق :

- « إذنك معك .. »

هكذا غادر (موردخاى) القاعة وأنا معه .:.

* * *

سبع وعشرون

كنت فى سيارتى أستعد للرحيل .. لكن من جديد استدعانا القاضى لقاعة المحاكمة عن طريق هاتفى الخلوى ، فضحك (موردخاى) وهرعنا إلى قاعة المحاكمة حيث كانت الجلسة مستمرة .. قال القاضى عندما رآنا :

ـ « نحن نقترب من تسوية .. »

خطر لى أن محاميى شركة (ريفر أوكس) قررا التدخل .. ربما بالاشتراك فى المبلغ المدفوع كتعويض .. لا أعرف بالضبط ما دار بعد رحيلنا لكن مناورة (موردخاى) كانت ناجحة بالتأكيد ..

ما تم الاتفاق عليه هو خمسة ملايين دولار كتعويض مقسطة .. وبما أن الأسرة هلكت فإن المحكمة ستراقب جوانب إنفاق هذا المبلغ ، أما بالنسبة لى فقد تم الاتفاق على وقفى عن العمل مدة تسعة أشهر ..

كانت السكرتيرة قد كتبت الاتفاق فى صفحة واحدة ومررته علينا ليوقع كل منا عليه ..

* * *

كان مبلغ الخمسمائة ألف دولار التى نالها مكتبنا فى هذه الصفقة واعدًا بحق .. نحتاج إلى أجهزة هاتف وكمبيوتر .. دعك من أن (موردخاى) سيودع باقى المبلغ فى المصرف لتكفى أرباحه لسداد رواتبنا ، لكن الأمر ما زال يحتاج إلى جهد كبير .. لقد هلكت الأسرة فلابد من أن نجد أبا الأطفال .. فإن كان قد هلك علينا أن نجد ورثته ..

على أننى فوجئت ذات صباح بـ (آرثر) وقد جاء إلى مكتبنا وجلس على المقعد الرخيص إياه .. قال لى إن شركته استعادت لياقتها وعادت لتحصيل المال ، لكنه ما زال عاجزًا عن النوم .. إنه يقترب من الثمانين وفكرة ذلك الخطأ الذى ارتكبه موظف عنده وتسبب فى موت أشخاص كثيرين لا يفارق تفكيره ..

ـ « إننى أدنو من القبر .. لكن ضميرى ليس مستريحًا على الإطلاق .. »

إن (آرثر) من جيل قديم من المحامين .. ذاك الجيل الذى اعتبر ممارسة الأخلاق جزءًا من المحاماة .. وما فعله معى كان جزءًا من هذا المبدأ ..

اقترحت عليه الحل التالى .. سوف ينتدب لنا محاميًا واحدًا من محاميه الأثرياء كل أسبوع ليعمل فى قضايا المشردين .. وعلى هذا المحامى أن يحل قضية مشرد واحد فقط فى هذا الأسبوع .. إن لديه ثمانمائة محام فلن يؤثر هذا على مجرى العمل ، وأنا غير قادر على ممارسة المحاماة لمدة تسعة أشهر .. إذن هذا حل عادل يزيح العبء عن كاهله ويوفر لـ (موردخاى) من يسد نقص المحامين عنده ..

راقت له الفكرة ووعد بأن يبدأ تنفيذها ..

ـ « سوف تحتاج إلى كاتب محام بارع .. وأنا أرشح (هكتور بالما) »

بدا أنه لم يسمع الاسم قط ، فقلت :

ـ « إنه مساعد (تشانس) الذى نفاه إلى (شيكاغو) كى لا يكون شاهدًا خطرًا .. لقد نقل فى منتصف الليل وأعتقد أن حياته كلها هنا فى واشنطن .. لابد من إعادته إلى هنا »

ـ « فهمت .. »

فى هذا الوقت كانت (روبى) قد نجحت فى قضاء أسبوعين من دون مخدرات ، وبدا أنها قادرة على الامتناع نهائيًا .. ارتدت ثيابًا نظيفة وبدأت حياتها تتغير .

وكانت علاقتى تتوطد بـ (ميجان) مديرة الملجأ وبدا واضحًا أننا سنتزوج عما قريب ..

شد ما تغيرت حياتى فى شهرين !

منذ شهرين كنت أعمل فى شركة (دريك وسوينى) وكنت متزوجًا من امرأة أخرى ، وكانت لى طموحات أخرى تمامًا .. اليوم تبدلت حياتى بالكامل ..

لا داعى للكلام عن المستقبل .. فالماضى ما زال يحدث !!

جون جريشام

* * *

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية



61

محامى الشوارع

فى حياة كل منا لحظة بعينها ينقلب فيها كل شىء ، وتدرك أن ما كنت تقاتل من أجله لا قيمة له .. وكانت هذه اللحظة فى انتظار (مايكل بروك) عندما تعرّض للاحتجاز هو وثمانية من رفاقه فى شركة محاماة كبرى .. قبلها كان محاميًا شابًا طموحًا ، وبعدها صار محامى شوارع مشغولاً بالذين لا بيت لهم .. قبلها كان رؤساؤه يفخرون به ويعتبرونه حصانهم الرابح ، وبعدها صاروا ألد أعدائه ..

العدد القادم

قاعدة المرايا (روجر زيلانى)







